معهد البحوث والدراسات العربية

جوانب
من الحياة العقلية والأدبية
في الجزائر

محاضرات

ألقاها

الدكتور محمد طه الحاجري

[على طلبة قسم الدراسات الأدبية]

١٩٦٨

جوانب
من الحياة العقلية والأدبية
في الجزائر

معهد البحوث والدراسات العربية

جوانب
من الحياة العقلية والأدبية
في الجزائر

محاضرات

ألقاها

الدكتور محمد طه الحاجري

[على طلبة قسم الدراسات الأدبية]

١٩٦٨

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه محاولة لكتابة تاريخ الجزائر الأدبى ، فى العصر الحديث

وهى محاولة يعلم صاحبها حق العلم ، منذ أخذ فى معالجتها - بل قبل أن يبدأها - مبلغ ما يعترضها من صعوبات ، وما يقوم دونها من عقبات ، وما يعتورها من أسباب النقص .

وانه ليعلم أن أقل ما كان يجب أن يتحقق به ، قبل أن يبدأ محاولته ، أن يعيش فى الجزائر فترة من الزمن، يتنفس هواءها ، ويستشعر أجواءها ، ويتذوق ألوان الحياة فيها ، ويغمر مشاعره بها ، ويطبع نفسه بطابعها ، ويعرف ما غاب بما حضر . وان حاول أن يتعوض عن ذلك بالجو العقلى الذى أحاط نفسه به ، مستغرقاً - قدر الطاقة - فيه

ولا ريب أنه كان واجداً هنالك - فوق ذلك - من ينابيع للمعرفة ومصادر الدراسة ما أعوزه فى مصر ، وما كان جديراً أن يجعله أكثر تهديا، وأقرب إلى الحقيقة ، وأدنى إلى الإحاطة والدقة .

ولكنه مع ذلك كله أقدم على هذه الدراسة، استجابة لرغبة كريمة من أخ كريم وصديق حميم[1] ، وإنه ليؤذيه أن يخالفها أو يعتذر عنها ؛ وإيماناً بحق الجزائر علينا جميعاً، نحن أبناء الأمة العربية، وإن من حقها أن نتعاون فى جمع ما تبدد من تراثها ، وفى بناء ما تهدم من صروحها. ورجاء أن يكون فى هذه الخطوة الاولى - وإن تعثرت - ما يفتح الطريق ويمهد شيئاً من عقباته ، ويحفز إلى المضى فيه وبلوغ غاياته .

والله تعالى هو ولى الهداية والتوفيق والسداد .

محمد طه الحاجرى

---

(١) هو السيد الاستاذ محمد خلف الله أحمد ، مدير معهد البحوث والدراسات العربية، مد الله فى حياته وبارك فيها .

١

فى ربيع سنة ١٩٦٢ تفضل معهد الدراسات العربية العالية (كما كان يسمى إذ ذاك) فدعانى لإلقاء بضع محاضرات عن « الحياة الأدبية فى ليبيا » . وقد أتاح لى اتصالى ببعض صور هذه الحياة ، فى خلال إقامتى بليبيا ، أستاذاً بجامعتها الناشئة ، من سنة ١٩٥٦ إلى سنة ١٩٦٠ ، أن أكون لنفسى صورة من هذه الحياة ، كما مكن لى من أن أؤدى هذه المحاضرات التى تفضل المعهد فدعانى لإلقائها ، كما تفضل بنشرها

وليبيا - كما نعلم - هى أول أقاليم المغرب العربى أو الشمال الأفريقى من ناحية المشرق ، وهى أولها تحرراً من ربقة الاستعمار ؛ على أنها قبل أن تستقل فى سنة ١٩٥١ كان الحاجز الحديدى الذى أقامه الاستعمار الإيطالى بينها وبين المشرق العربى قد أخذ ينهار ، وبذلك انفتح ما بينها وبينه ، فكانت الثغرة الأولى التى انفتحت فى السد الكبير الذى أقامه الاستعمار بين المغرب والمشرق وكان إنشاء الجامعة الليبية ، بمساندة مصر ، مظهرا من مظاهر هذه الصلة التى جعلت تشق طريقها بينهما .

وقد فرض على عملى فى هذه الجامعة الناشئة التى استحدثت دراسات جديدة تمت اليها ، وتحقق رسالتها ، أن أدرس الحياة الأدبية فى المغرب العربى، وهى الحياة التى أراد الاستعمار أن يطمسها ويعفى معالمها ، ليحقق بذلك أهداف سياسته، من اهدار الشخصية المغربية ، بقطع ما بينها وبين جذورها الضاربة فى الأعماق . وشخصية أى شعب من الشعوب تنبع من أصوله التى يتكون منها تاريخه ، ومن مبلغ إحساسه بهذه الأصول ، والاستجابة لها ، فى مواجهة أحداث حياته الحاضرة .

وبذلك بدأت صلتي بالمغرب العربي في تاريخه الأدبي ، وجعلت أستشرف من مكاني في ليبيا عالماً جديداً بالقياس إليّ ، يزخر ماضيه بصور من الادب رائعة ، روعة الاصالة والطرافة ، وكان من الطبيعي أن يجتذبني ذلك إلى استشراف حياته الأدبية الحاضرة ، ألتمسها بكل وسيلة ممكنة . ولكن وسائلي إلى ذلك كانت مختلفة في مدى إمكانها .

فأما ليبيا فقد استطعت بحكم وجودي بها ، واتصالي بطوائف مختلفة من مثقفيها ورجال الفكر فيها ؛ أن أجمع شيئاً من أشتات حياتها الأدبية التي كانت ما تزال مبعثرة هنا وهنا ، وقد تقطعت الأسباب دون الكثير منها

وأما تونس فقد أتيح لي أن أسافر اليها في صيف ١٩٥٦ ، وأمضي فيها ما يناهز الشهر . وقد استطعت أن أرى في خلال هذه الإقامة القصيرة ما يمكن أن تتيحه لي من صور النشاط الأدبي ، ومن معالم الحياة الثقافية عامة . ولكن هذه الفترة القصيرة ربطت بيني وبينها برباط وثيق ، وجعلتني دائم الالتفات نحوها والتطلع إلى مظاهر النشاط الأدبي فيها .

وأما الجزائر ، فلم يكن إلا حديث الحرب والبطولة الجزائرية ، يملأ كل مكان ويغمر كل ندوة ، وقد أتيح لي أثناء رحلتي إلى تونس أن أحس إحساساً قوياً بالروح الجزائرية ، يتردد صداها في كل مكان ، وأن أتصل ببعض الشبان الجزائريين ، وأن أزور نادي الطلبة الجزائريين في العاصمة ، وأن أتعرف في خلال هذه الزيارة إلى صور من الحياة الجزائرية ، وأن أرى صورة الإمام الجزائري الأكبر ، عبد الحميد بن باديس ، ماثلة في قاعة الاجتماع بذلك النادي ، تملأه روعة ، كما تبينت شيئاً من ملامح شخصيته في بعض الأحاديث ، وفي نشرة القيت إلي جمعت طائفة مما قيل في حفل أقيم لذكراه . فإذا عدت إلى بنغازي من هذه الرحلة فقد انعقدت صلتي ببعض الشخصيات الجزائرية فيها ، ألتمس لديهم

ما عسى أن يصلنى بالأدب الجزائرى . ومن أحدهم سمعت ، للمرة الأولى مع أشد الأسف ، عن الشاعر الجزائرى الكبير محمد العيد . وقد تفضل فقدم إلى صفحات دون فيها طائفة من شعره .

وأما المغرب فقد كانت صلتى به ، وتمثلى لبعض الصور الأدبية فيه ، عن طريق بعض الشخصيات المغربية التى أتيح لى أن أتصل بها ، عن طريق المكاتبة فى أكثر الأمر .

هذه بعض النوافذ التى أطللت منها على الحياة الأدبية فى المغرب العربى ، فى خلال إقامتى فى ليبيا . فكما كانت ليبيا فى رأى ساستها هى حلقة الاتصال بين المشرق العربى والمغرب العربى ، ومن هذه الصفة تستمد خطرها السياسى فكذلك كانت بالقياس إلى وسيلة الاتصال بالأدب العربى فى المغرب : قديمه الذى عكفت عليه دارسا له مع طلابى فى الجامعة الليبية ، وحديثه الذى جعلت أتشوف إليه ، والتمس مصادره ، وأحاول تبين صوره . وأود لو أتيح لى أن أفرغ له .

فإذا عدت إلى مصر جعلت شواغل الدراسة هنا ومناهجها التقليدية تصرفنى أكثر الوقت عن المضى فيما بدأته من درس التاريخ الأدبى للمغرب العربى . فإنما هى الامات قصيرة خاطفة كلما أتيح لى بين شواغلى تلك وقت فراغ . أما الأدب المغربى الحديث فقد ظل تعلقى به ، ولكنه تعلق الهوى لا تعلق الدرس وكان من أجمل ما أسداه إلى هذا المعهد أن صرفنى إلى مراجعته فى بعض مواطنه دارساً ، حين دعانى إلى درس الحياة الأدبية فى ليبيا ، فأتاح لى بذلك أن أقضى معه فترة جميلة ، بما كان يحلق فوقها من صور الذكرى ، وما كان يعبق فيها من أرج الحنين ، وبما كان يغمرنى من الشعور بأننى أؤدى حقاً فى عنقى لذلك البلد .

وها هوذا المعهد يمد إلى يدا أخرى ، ليردنى إلى ذلك العالم الجميل ، حين رغب إلىّ أن ألقى فيه بضع محاضرات أخرى عن الأدب العربى واللغة العربية فى المغرب . وعلى شدة ما أثارت هذه الدعوة الكريمة فى نفسى من حنين مقرون بالشكر ، أشفقت من ولوج هذا العالم ، مقدراً مبلغ الصعوبات التى تحول بينى وبين دراسته ، وأداء هذه المحاضرات على الوجه الجديرة هى به .

ولكنى مع هذا الإشفاق الذى أعلم دواعيه ، كنت أرى أن من حق الجزائر خاصة — بين أقاليم المغرب العربى — علينا وعلى هذا المعهد ، أن نؤدى إليها نصيبها من درس العربية فيها وتجليه مكانها منها . ولقد شارك المعهد فى بعض الدراسات الجزائرية ، وخاصة ما كان منها يخدم قضية الجزائر ، ويمحق أباطيل المستعمرين عنها ، فى إبان الكفاح الجزائرى. أما الجانب اللغوى والأدبى فكانما كان إلى جانب تلك الدراسات نافلة لم يحن بعد حينها . فالآن وقد انتصرت الجزائر انتصاراً حاسماً فقد أصبح ما كان نافلة بالأمس فريضة اليوم ، وأصبح التعرف إلى ذلك الأفق : أفق الأدب العربى فيها ، واجبا لا معدى عنه ولا مترخص فيه، مهما قامت الصعاب دونه، وضعفت الأسباب إليه ولا ريب أن تضافر الجهود حوله جدير أن يجليه على الوجه الأمثل ، إذ يمهد الطرق إليه ، ويبدد ذلك الضباب الكثيف الذى جعلت الأهواء الاستعمارية تنشره حوله ، وتراكمه عليه . إن شاء الله .

وقد استطاعت تلك الأهواء أن توقر فى صدور الكثيرين أن العربية قد درست فى الجزائر ، حتى انسلخت منها ، فهى فرنسية اللسان فى حياتها وفى ثقافتها وفى أدبها ، واتخذت من هذه الدعوى التى لا تفتأ ترددها أداة إلى تثبيط الدعوة إلى تعريب الجزائر ، بمعنى إزالة آثار العجمة منها ، وتصورها بأنها جهد ضائع ، أو هو — على الأقل — ضئيل الجدوى .

ولا ريب أن العربية حوربت فى الجزائر ، حرباً عنيفة متصلة لم تنقطع ولم تفتر، وقد استخدمت فيها كل الأسلحة، واتخذت فيها كل الأساليب. وكان ذلك جزءاً من خطة مرسومة تهدف إلى القضاء عليها. وكان من الطبيعى أن يكون لهذه الحرب أثرها ، وأن يكون لهذه المقدمات نتائجها . وكان من ذلك ما أصيبت به هنالك ، مما نعرض له بعد . ومع ذلك بقيت ، فى صميمها ، صامدة لهـــذه الحرب ، وإن ذوت وضعفت ، وإن جعلت تميل للاعاصير التى تهب عليها ، وتحاول اقتلاعها ، ولـكن جذورها ظلت ثابتة . لأنها جزء من ضمير الشعب الجزائرى الذى أثبت بما لا يدع مجالا للشك أن له كيانه القوى الركين الذى حاول الاستعمار بكل وسيلة أن يهدره ، حتى ظن غير مرة أنه قضى عليه ، وحتى خيل إليه أنه تمكن من أن يجعل من « القومية الجزائرية » أسطورة ينكرها بعض الجزائريين أنفسهم ، ويتندرون بدعاتها . فقد تبدد ذلك الوهم وذهبت به الريح كل مذهب . وبرزت بعد ذلك الشخصية الجزائرية واضحة الملامح بينة القسمات .

وإذا كانت اللغة هى ابرز خصائص القومية وأعمق عناصرها وأقوى مشخصاتها ، وأشدها اتصالا بها وتعبيراً عنها ، فليس أشد إيغالا فى الوهم ، ومنافاة لنواميس الوجود ، من القول بأن اللغة العربية قضى عليها فى الجزائر . وإن الترويج لهذا القول أو ترديده — ولو بحسن نية — هو — إلى ما فيه من متابعة للوهم وجرى مع الباطل — إثم كبير .

وسنرى — فيما نستقبل من هـــذه الدراسة إن شاء الله — أن العربية لم تكتف بأن تثبت فى الجزائر وجودها وتحقق كيانها ، وإنما بدت — فوق ذلك فى بعض صورها — عملاقاً شديد القوى . وهذه حقيقة ينبغى أن تقرر . وكانت مما دعانا إلى تجاهل الصعاب التى تعترض هذه الدراسة ، ووجوه النقص التى لا بد

— فيما نتوقع — أن توسم بها . فلنبدأ على بركة الله نرجو عونه وتسديده . والمستقبل كفيل — ولا ريب — بسد الثغر واكمال الناقص .

وصعوبات هذه الدراسة تتمثل فى قلة مصادرها ، وتقطع وسائلنا إلى هذه المصادر .

وأول مصادر الدرس الأدبى لأى عصر من العصور هى الآثار التى خلفها تحمل سماته وتعبر عنه . وهى بالقياس إلى العصر الحديث تتمثل أكثر ما تتمثل فى الصحافة التى تمثل الاتجاهات الفكرية والاجتماعية والأدبية المختلفة كما تمثل فى الوقت نفسه ألوان التعبير وصور الأساليب ، ثم الكتب التى يكتبها رجال الفكر والأدب ، والمذكرات التى يدونونها لأنفسهم ويسجلون فيها أحداث حياتهم وألوان انطباعاتهم ، وما إلى ذلك من دواوين الشعر ومجموعاته .

أما الصحافة فهى فى الجزائر صحافتان : صحافة عربية وصحافة أجنبية . وإنما تعنينا الأولى فيما نحن بسبيله . فما شأن هذه الصحافة ، وأين نحن منها .

أما أنه كان فى الجزائر صحافة طوال هذه الفترة التى نحاول دراستها فهذا مالا ريب فيه .

وقد تكفل الفيكونت فيليب دى طرازى ، فى الجزء الرابع من كتابه « تاريخ الصحافة العربية » ببيان الصحف التى صدرت فى الجزائر ، منذ إنشاء أول صحيفة جزائرية سنة ١٨٤٧ حتى سنة ١٩٢٩ . وجملة هذه الصحف خمس وعشرون صحيفة . أولاها صحيفة « المبشر » الرسمية ، لسان حال الحكومة الجزائرية . وكانت تصدر بالعربية والفرنسية ، ومثلها فى هذا صحيفة « الإقدام » التى أصدرها الأمير خالد الجزائرى ، سنة ١٩٢٠ ، فقد كانت مزدوجة اللسان أيضاً ، وربما كان هذا شأن كثير من صحف هذه الفترة

وخاصة الصحف التى تدل أسماء أصحابها على أنهم أجانب ، كصحيفة « النصيح » لادوار غسلين ، والأخبار لفيكتور باروكان ، والمغرب لبطرس فونتانا .

وأما ما عدا ذلك من الصحف التى صدرت بعد هذه الفترة ، فليس لنا فى تعرفها إلا أن نتلقط أسماءها تلقطاً فى خلال ما يتاح لنا أن نقرأه فى هـــذا الكتاب أو ذاك ، وفى هذه المجلة أو تلك ، فنعلم مثلا أن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كانت تصدر إلى جانب صحيفتيها المعروفتين : الشهاب والبصائر صحفاً ثلاثة : هى السنة والشريعة والصراط ، كما جاءت الإشارة إلى ذلك فى سياق مقالة نشرتها مجلة الشهاب فى جزء أبريل سنة ١٩٣٤ . وقد أشير فى هـذه المقالة أيضاً إلى أنه كان هنالك صحف أخرى (لم تذكر أسماؤها) أصدرها بعض أعضاء الجمعية ، ولـكنهم إذ يتحدثون فيها عنها ، فإنما يفعلون ذلك على مسؤوليتهم .

كما نعلم — فى أثناء قراءتنا لمقال كتبه الأستاذ مبارك الميلى ، ونشره فى مجلة الشهاب فى جزء فبراير ١٩٣٣ ، بعنوان «الصوفية ومراتب العبادة» — أن هناك طائفة من الصحف التى كانت تصدرها بعض الهيئات التى ألفت لمارضة جمعية العلماء ومناوأتها ، كجمعية علماء السنة ، وأن هـذه الجمعية كانت تصدر ، أو تستخدم فى دعوتها ، البلاغ والاخلاص والمعيار .

وإذا كانت جريدة البلاغ من الجرائد التى ذكرها دى طرازى ، وذكر أنها صدرت سنة ١٩٢٦ ، فها نحن نعلم — عرضاً — من كلام الأستاذ المبارك الميلى شيئاً من اتجاهها .

وكذلك نعرف — فى خلال قراءتنا مقالا للأستاذ صالح الخرفى عن « الحرية فى الشعر الجزائرى » نشره فى مجلة الفكر التونسية (جزء مايو ١٩٦٢)

وأورد فيه أبياتاً للأستاذ الطيب العقبي . قال عنها إنها « من قصيدة قالها في جريدة الجزائر : وقد صودر العدد الأول منها قبل صدوره » ـ أن هناك جريدة تحمل اسم « الجزائر » غير جريدة الجزائر التي ذكرها دي طرازي ، وذكر أنها أنشئت سنة ١٩٠٨ .

وبين مراجع الأستاذ أبي القاسم سعد الله لكتابه عن محمد العيد نجد صحيفتي الإصلاح والأمة . أما الإصلاح فهي من الصحف التي ذكرها دي طرازي ، وقال إن صاحبها هو الأستاذ الطيب العقبي ، وأما الأمة فليست من هذه الصحف .

وكذلك يذكر الأستاذ عبد الله الركيبي في كتابه « دراسات في الشعر الجزائري الحديث » صحيفة تحمل اسم المساواة .

فذلك بعض ما أتيح لنا من أسماء الصحف التي صدرت في الجزائر ، بعد التاريخ الذي وقف عنده الفيكونت فيليب دي طرازي . وقد ذكر الأستاذ مفدي زكريا في ذيل ديوانه اللهب المقدس بين ثبت مؤلفاته التي في طريق الإعداد للطبع ، ما يفيد أن له كتاباً في « تاريخ الصحافة العربية في الجزائر » ألفه بمشاركة المؤرخ التونسي ،الأستاذ محمد الصالح المهيدي . ولاريب أنه سيجلو عند صدوره هذا الجانب من جوانب النشاط الأدبي في الجزائر ولعله يتيح للباحث في تاريخ الأدب الجزائري أن يفيد من هذا المصدر من مصادره .

ومهما يكن من أمر فها نحن إزاء طائفة من الصحف الجزائرية لا بأس بها ، فماذا بين أيدينا منها ؟

لقد كان ينبغي أن تكون لدينا مجموعات كاملة أو مقاربة ، أو ـ على الأقل ـ تمثل نسبة معقولة من هذه الصحف ، ولكن التمزق الذي منيت به

الشعوب العربية ، والحاجز الحديدى الذى أقامه الاستعمار بين الغرب والشرق ، أوصدا السبيل دون هذه الصحف ، وحالا بيننا وبينها . وهكذا لا نجد بخزائن الدوريات بدار الكتب المصرية ــ كما يمكن أن تؤدى إلينا فهارسها ــ غير دوريتين جزائريتين اثنتين، لا ندرى كيف تسللتا أو أذن لهما ، وهما الشهاب والبصائر . وفوق هذا فإن هاتين المجلتين لا توجدان بصورة كاملة(١) .

وهكذا يجد الباحث فى تاريخ الأدب الجزائرى الحديث نفسه محروماً من هذا المصدر الخصب فى الصورة التى يقتضيها البحث العلمى .

ومع ذلك فإذا كنا نبدأ اليوم هذه الدراسة ، مع تقطع هذه الوسيلة من وسائلها ، ونزارة هذا المصدر من مصادرها ، فإنما نفعل ذلك لأننا نخشى أن يطول انتظارنا ، فيطول إغفالنا لهذا الواجب من واجباتنا . ولعل المعهد يأخذ فى التماس الوسائل إلى الصحف الجزائرية التى يبدو أن قدراً غير قليل منها فى مكتبات المغرب العربى . ولا ريب أن طائفة من مجموعاتها مودعة فى المكتبة الوطنية بتونس ، كما لا يكاد يداخلنا الشك فى أننا ظافرون بها أو ببعضها إذا نحن التمسناها فى مكتبات الجزائر والمكتبات الفرنسية .

وشأننا من المؤلفات الجزائرية وما إليها قريب من شأننا مع الصحافة ، فليس فى أيدينا منها إلا القليل ، وهو قليل من قليل . ومرجع ذلك فيما نحسب إلى أن حركة النشر فى الجزائر كانت محدودة ، تكتنفها الصعوبات ، وتقيد خطاها الحرب العنيفة المتصلة التى نظمها الاستعمار على اللغة العربية ، فالمطابع العربية قليلة ، لعلها لا تعدو المطبعة العربية فى مدينة الجزائر ،

---

(١) ومع هذا فإنى لم أستطع أن أظفر من مجلة الشهاب إلا ببعض المجلدات المسجلة فى الفهرس ، أما البصائر فلم أظفر بشىء منها ، لا فى المكتبة الرئيسية بباب الخلق ، ولا فى فرعها بالقلعة .

والمطبعة الجزائرية الإسلامية فى مدينة قسنطينة . وفى هاتين المطبعتين طبع كتاب الجزائر ، لأحمد توفيق المدنى ، سنة ١٣٥٠ هـ ، وكتاب تاريخ الجزائر فى القديم والحديث لمبارك بن محمد الهلالى الميلى ، سنة ١٩٣٢ م ، وكتاب مقاصد القرآن لمحمد الصالح الصديق ، سنة (١٣٧٥ - ١٩٥٥) .

وبسبب هذه الصعوبات التى كانت تعانيها حركة النشر فى الجزائر كانت بعض المؤلفات الجزائرية تجد طريقها إلى القارىء العربى عن طريق دور النشر فى تونس والقاهرة وبيروت ، فمن الكتب التى نشرت فى تونس كتاب شعراء الجزائر فى العصر الحاضر ، لمحمد الهادى الزاهرى ، وكتاب نماذج بشرية لأحمد رضا حوحو . ومما نشر فى القاهرة كتاب « الإسلام فى حاجة إلى دعاية وتبشير » للشيخ السعيد الزاهرى ، وكتاب عيون البصائر للشيخ البشير الإبراهيمى ، ومما نشر فى بيروت ديوان اللهب المقدس لمفدى زكريا .

ونحسب أن عدداً غير قليل مما كتب الجزائريون لم يجد سبيله إلى النشر ، بسبب هذه الصعوبات ككتب الشيخ البشير الإبراهيمى التى أوردها فى الترجمة التى كتبها لنفسه ، فى الجزء الحادى والعشرين من مجلة مجمع اللغة العربية ، وهى نحو خمسة عشر كتاباً ورسالة ، لم يطبع منها غير كتاب عيون البصائر . أما سائرها فقد بقيت — كما يقول — مسودات فى مكتبته بالجزائر .

ولا نكاد نشك فى أن مكتبات الجزائر الخاصة تحتوى على ذخائر يتطلع اليها مؤرخ الأدب الجزائرى .

٢

ويبدأ تاريخ الجزائر الحديث فى القرن التاسع عشر ، كما كان ذلك مبدأ التاريخ الحديث لشعوب الشرق العربى . ولكن طابع هذه البداية يختلف فى المشرق عنه فى الجزائر . ذلك أنها اقترنت فى شعوب الشرق العربى بالنهضة المتمثلة فى تحقيق الشخصية العربية الإسلامية . وكانت قد غفت بعد صراع طويل مرير مع القوى الصليبية ، تحقق لها فى نهايته النصر عليها . ولكنها لم تكد تصل إلى هذه الغاية حتى تعرضت لبعض الظروف والأحداث التى لا مجال للحديث عنها هنا ، والتى أدخلت عليها الوهن ، وجعلتها تستنيم إلى حماية الدولة العثمانية ، وفقدت فى خلال ذلك إحساسها بنفسها .

وما زالت كذلك حتى أيقظتها القارعة التى حاقت بها بالغزو الفرنسى لمصر ، حتى إذا تم للمسلمين الانتصار عليه ، ورده على أعقابه ، فقد رد ذلك اليهم شعورهم بأنفسهم ، وإيمانهم بشخصيتهم ، فأخذوا يلتمسون مقوماتها ، ويحققون كيانها ، ويبرزون ملامحها ، ويعملون على إمدادها بالوسائل التى تدعمها فكان ذلك مبدأ النهضة الحديثة فى مصر وبلاد الشرق العربى .

أما فى الجزائر — وللمغرب العربى عامة — فإن القوى الصليبية التى كانت قد اندحرت فى الشرق ، وانتهى أمرها تماماً فى نهاية القرن الثالث عشر ، كانت قد اتخذت منه ميداناً جديداً لنشاطها ، فهى دائمة التصدى للمسلمين وغزو شواطئهم ، وبذلك جعلت تستثير روح الصراع عندهم . وإذا كانت هذه القوى استطاعت أن تغزو المغرب العربى ، وأن تتخذ لها مواقع على سواحله ، وأن تحتل بعض مدنه ، كمدينة وهران فى الجزائر ، (وقد استولت عليها فى فى أوائل القرن السادس عشر) ، فقد كان فى ذلك ما أبقى روح المقاومة والصراع

حية يقظة عند المسلمين ، فأبقى عليهم ذلك شعورهم بذاتيتهم ، واعتدادهم بشخصيتهم ، وخاصة أنهم استطاعوا أن يثبتوا فى هذا الصراع ، ويردوا على لقوى الصليبية غاراتها بمثلها . وتاريخ الجزائر خاصة حافل بصور للمقاومة الباسلة التى كانت ما تزال تتصدى للغارات الأسبانية والفرنسية المتعاقبة عاماً بعد عام وخاصة فى القرن السابع عشر والثامن عشر ، فتردها على أعقابها ، وتكبدها من الهزائم والخسائر ما تتجرعه فى غيظ ، ثم لا تكتفى بذلك ، بل تتخذ موقف المهاجمة ، فتشن الغارات عليها ، مثيرة الفزع والرعب .

وهكذا استمرت الروح الصليبية التى لفظت فى المشرق أنفاسها الأخيرة حية نشيطة فى المغرب ، كما بقيت روح الصراع بين مسلمى الجزائر يقظة متوثبة ، حتى كان الغزو الفرنسى سنة ١٨٣٠ . وهو ليس إلا حلقة من حلقات الصراع بين الروح الصليبية العـــدوانية والروح الإسلامية العربية . وبهذا نرى أن الجزائر ظلت — وحتى ذلك الغزو — محتفظة بشخصيتها الإسلامية العربية واضحة الملامح ، مدركة وجودها إدراكاً قويا ، على خلاف ما كان عليه الأمر فى المشرق ، اذ فاجأه الغزو الفرنسى وهو فى ركود غفل فيه عن نفسه .

ولكن الغزو الفرنسى الذى كان بداية اليقظة فى المشرق ، وكان من عوامل نهضته وإدراكه لحقيقة شخصيته ، وإن يكن عاملا غير مباشر ، كان دوره فى الجزائر غير ذلك ، إذ كان بداية فقدانها لشخصيتها ، إلى أن أتيح لها بعد أن تستردها .

ومرجع الأمر — فيما نحسب — إلى أن الشرق العربى أتيح له أن يتغلب على الغزو الفرنسى ويرده عنه ، وقد أتاحت له ذلك أسباب وملابسات ليس هذا مجال الحديث عنها ، فبعث ذلك عنده الإحساس بنفسه والتقدير لمكانه . فى حين أن غزو الجزائر استطاع أن يفرض نفسه ، ويثبت أقدامه ، ويوغل

فى السبيل التى اختطها . وقد احتشدت فرنسا لهذا الغزو وجمعت له قواها ، وأتيح له من العوامل التى قد نعرض لها ما مكن له ، وحقق له السياسة التى رسمها فى دهاء ومكر ، ونفذها فى عنف ووحشية . فلم تلبث الجزائر — بعد مقاومة باسلة — أن اختفت شخصيتها . وخمد عندها احساسها بقوميتها .

ولكن هذه الشخصية الجزائرية التى اختفت ، وظن المستعمر أنها اندثرت ، لم تلبث أن جعلت ملامحها تظهر من جديد ، فى خفوت وضعف ، ثم أخذت هذه الملامح تتضح وتبرز وتستعلن شيئاً فشيئاً ، حتى عاد لهذه الشخصية كيانها كاملا ، وأصبحت القومية الجزائرية حقيقة ماثلة ، تفرض نفسها ، وتجاهد دون كيانها ، وتقاوم القيود المفروضة عليها ، حتى تم لها النصر ، وأصبح أمرها إليها .

وبذلك ، وعن هذا الأصل ، نستطيع أن نرى فى التاريخ الجزائرى الحديث ثلاث فترات :

الأولى : هى فترة التحول الذى أراده الاستعمار الفرنسى للشعب الجزائرى ، ليرضى نوازعه ، ويحقق غاياته ، إذ يفقد شخصيته والإحساس بقوميته . وتبدأ هذه الفترة بالغزو الفرنسى ، وتنتهى — فيما نقدر وبصورة تقريبية بطبيعة الحال — بالحرب العالمية الأولى .

والثانية : هى الفترة التى أتيح فيها لهذه الشخصية أن تسترد نفسها ، وتظهر ملامحها ، وللقومية الجزائرية أن تنبعث وتستعلن ، وتعبر عن حقيقتها ، الوانا من التعبير مختلفة ، بين الهمس والجاهرة ، وبين القصد والمواربة ، وبين التصريح والتلميح ، إلى أن اتخذ هذا التعبير صورة الثورة المسلحة التى قامت سنة ١٩٥٤ .

وبذلك تبدأ الفترة الثالثة : فترة الثورة الجزائراية التى كانت تحولا تاماً فى حياة الجزائر ، والتى كان لها طابعها الخاص الذى غمر جميع نواحيها . وقد

استطاعت الشخصية الجزائرية فى هذه الفترة أن تفرض نفسها ، وتصمد لـكل ما كان يحيط بها ، كما استطاعت أن تنتصر فى هذه المعركة الضارية التى عبأ المستعمر لها جميع قواه ، واستخدم فيها جميع وسائله ، غير متحرج ولا متأثم ، سبع سنين متصلة .

فإذا انتهت هذه المرحلة بدأ عهد الاستقلال الذى تعيش فيه الجزائر الآن ، وقد اتخذت فيه الحياة الجزائرية صوراً جديدة ، وانتقل فيه الشعب الجزائرى إلى الوان من الـكفاح جديدة .

هذا هو التقسيم الذى نفترضه للتاريخ الجزائرى الحديث عامة ، وتاريخ الأدب العربى الحديث فى الجزائر خاصة ، وهو تقسيم عام ينبنى على ذلك الأصل، وينظر إلى الخطوط الـكبرى وللملامح العامة. وتحت هذا العموم تندرج بعض التقسيمات الفرعية .

ففى الفترة الأولى نستطيع أن نرى ثلاث مراحـــل، تقابل أجيالها الثلاثة وتمثلها :

فالمرحلة الأولى تمثل الجيل الأول الذى نشأ فى أوائل القرن التاسع عشر ، وتم تمامه فى إبان الغزو الفرنسى ، وبه قامت المقاومة الجزائرية التى قادها الأمير عبد القادر الذى يمثل ذلك الجيل ، كما كان يمثل القومية الجزائرية فى أتم صورها ، وبجميع مدلولاتها ، وكان — بهذه المقاومة — يريد أن يستبق ملامحها ويبرزها ويؤكدها .

وقد كان انتهاء هذه المقاومة ، واستسلام الأمير عبد القادر ، سنة١٨٤٧ ، إيذانا بالمرحلة التالية التى تمثل الجيل الثانى ، وهو الجيل الذى نشأ فى إبان المقاومة وشهد انتكاستها ، وعانى صعوبات الحياة التى تجمعت فى هذه الرحلة ،

فهو موزع بين روح المقاومة والنزوع إلى المسالة ، ممزق بين الإيمان بالمثل الذى ضربه الأمير عبد القادر ، والركون إلى الواقع الذى ألجأ الأمير إلى الاستسلام . ومن ذلك كانت المقاومة ، التى هى — فى حقيقة أمرها — تعبير عن الشخصية الجزائرية ، ضعيفة مشتتة ، فى صورة ثورات متفرقة متناثرة ، تتنزع بها نوازع مختلفة .

وفى هـــذه المرحلة استطاع الاستعمار أن يضع النظم ويرسم الخطط التى تمكن له .

وفى خلال ذلك ينشأ جيل جديد ، فى ظل السياسة الاستعمارية ، من ناحية وهذه القومية المنهوكة المتهالكة ، من ناحية أخرى . وبذلك تجىء المرحلة الثالثة التى تمثل ذلك الجيل .

ولكن هـــذا الجيل ، وإن شمله اسم واحد يمكن أن تتبين فيه صنوفا ثلاثة :

الجمهرة العظمى ، أو سواد الشعب الذى غلبه الاستعمار على أمره ، وغلبته الحياة الكادحة التى تستغرقه ، ولا تدع له إلا أن يفكر فى استبقاء وجوده المادى ، ولا شىء غير ذلك . ومن ذلك بدا أن الشعب الجزائرى شعب لا شخصية له ، ولا قومية ينتمى إليها ، حتى جاز للاستعمار أن يعتبر الجزائر جزءاً من فرنسا ، وحتى استجاز أحد أبناء ذلك الجيل أن يكتب باسمه ، معبراً عن رأى طائفة من أنداده ، منكراً أن يكون هناك وطن جزائرى يجب أن يدافع عنه ، أو أمة جزائرية ينتمى إليها ويفخر بها .

وقلة قليلة أتيح لها أن تنال حظاً من العلم أو التعليم الذى رسمه الاستعمار ووضع حدوده ومناهجه ، ومن هذه القلة القليلة أفراد أتيح لهم أن يستكملوا

تعليمهم فى الجامعات الفرنسية ، ويعيشوا فى المجتمع الفرنسى .

والصنف الثالث جماعة من الجزائريين ضاقوا بالحياة فى الجزائر ، فلم يملكوا إلا أن يهاجروا فنهم من هاجر إلى تونس، ومنهم من هاجر إلى المشرق: مصر والحجاز والشام .

وفى هذه المرحلة تكمن بذرة الفترة الثانية ، وهى فترة اليقظة .

٣

بعد هذه النظرة العامة التى ألقيناها على التاريخ الجزائرى الحديث فى جملته لنتعرف فى إجمال أطواره وأقسامه ، نأخذ فى الحديث عن المرحلة الأولى من ناحية بعض العوامل الكبرى المسيطرة عليها .

وهذه المرحلة هى — كما أشرنا منذ قليل — مرحلة القومية اليقظة الواضحة ومقاومة الاستعمار التى تعتبر أقوى تعبير عن هذه القومية . ونحن حين ننظر فى أحداث هذه المرحلة نرى أنها لم تكن صراعاً بين الجزائر والاستعمار الفرنسى فحسب ، وإنما كانت إلى جانب ذلك — صراعاً بين القومية والعوامل المناهضة لها . فكما كان عبد القادر يقود الحرب ضد الغزاة الفرنسيين ، كان — فى الوقت نفسه — يقاوم عناصر التحلل من هذه القومية ، وهى العناصر التى كان الاستعمار يعمل على تقويتها وزيادة فاعليتها .

وتتمثل هذه العناصر — أكثر ما تتمثل — فى بعض القبائل البدوية التى ظلت روح البداوة متغلغلة فى صميمها . فكانت بطبيعة تكوينها الاجتماعى والروحى والثقافى لا تعرف معنى الوطن ، ولا تؤمن بالروابط القومية ولا تلتزمها طائعة مختارة ، وهى الروابط التى تصدر عن الدين واللغة والوطن المشترك . إذ كانت العاطفة الدينية ضعيفة عندها ، أو هى قد اتخذت صورة خاطئة منحرفة تجعل منها عامل تفرقة . والأمية التى كانت تعيش فيها هذه القبائل عمقت فروق اللهجات التى كانت تتكلم بها ، وباعدت بينها ، كما أبقت على اللهجات البربرية ووطدت مكانها فيها . فلم تعد اللغة بهذه المثابة عنصرا من عناصر القومية ، بل أصبحت عامل تفرقة أيضاً . وأما الوطن المشترك فلا مفهوم له عندها بطبيعة أسلوب

حياتها . وبذلك استشرت العصبية القبلية التي هي خصم القومية الألد .

وهذه الروح البدوية كان من الطبيعي أن تتطور وتتهذب في مثل هذه القبائل ، لو أنها ظلت متعرضة لعوامل التطور الاجتماعي والثقافي . ولكن هذه العوامل كانت — فيما يبدو — قد توقفت ، فغلبت عليها نوازع البداوة . ثم كان هنالك ، من قبل الغزو الفرنسي ، ما أذكى هذه النوازع .

من ذلك ماذكر صاحب كتاب « تحفة الزائر » ، في سياق كلامه عن الحكومة التركية في الجزائر ، إذ يقول : « وقد كان نفوذها مع استبدادها قاصراً لا يتعدى المدن والقرى . وأما الجبال وظواعن العرب في البادية فإن لهم إدارة تخصهم ، موكول أمرها إلى زعمائهم . ولما كانت الحكومة غير قادرة على تنظيمهم في سلك الطاعة ألقت بينهم دسائس العداوة والبغضاء ، فتفرقت كلمتهم وضعفت شوكتهم . وبهذا كان استحواذها عليهم . وهذه السياسة من أكبر الوسائل التي تتوصل بها الأمة القليلة الأجنبية ، إلى الاستيلاء على الأمة الكبيرة الوطنية ، كما قيل: فرق واحكم»(١). فها نحن نرى في ذلك أن سياسة الحاكم التركي كانت من عوامل إيقاظ نوازع البداوة في بعض القبائل ، إلى جانب بعدها عن أسباب التطور .

ويقول في عقب ذلك : « ولما استولى الفرنسيس على مدينتي الجزائر ووهران ، وتمكن منهما ، تفرق الناس فرقاً ، وسلكوا من الخلاف طرقاً ، وفسدت السبل . ولا غرو فإن سكانها عرب وبربر مختلفو الطبع والمحتد . ومن شأن أهل البادية إثارة الفتن ليتهيأ لهم ما اعتادوا من الغزو لتعيشهم ، فترى كل فريق يترصد فرصة الوثوب على مقابله ، لا سيما وقد كانت الحكومة

---

(١) تحفة الزائر ، في مآثر الأمير عبد القادر ، وأخبار الجزائر ١ : ٩٠ ـ ٩١ ط الاسكندرية ، ١٩٠٣ .

الجزائرية أحكمت عرى هذه الضغائن بينهم . ولما آل الأمر إلى ما آل إليه ، ازداد هيجانهم ، وسرى داعى الانتقام فى نفوس العامة ، وصار كل من له ثأر يحاول الأخذ به ، فطوى لذلك بساط الأمن ، ووقف دولاب التجارة ، وتعطلت الزراعة ، فانتهز العدو الفرصة ، وأكثر من شدة الغارات على الضواحى » .

فهذه صورة من غلبة النوازع البدوية ومظاهرها فى الحياة الجزائرية ، من إشاعة الفوضى والاضطراب . وقد أتاح لها الغزو الفرنسى أن تنطلق فى عرامة وقوة ، كما أنها ـ بدورها ـ مكنت لهذا الغزو ، إذ كان من شأن ذلك أن يشغل للمواطنين عن مواجهته وتنظيم مقاومته . ومن ذلك كان من أول ما اهتم الأمير عبد القادر به ، بعد البيعة له ، أن يتصدى لهذه الحالة السائدة بين بعض القبائل ، ليقمعها ويكبح جماحها ، متخذاً أسلوب العنف حيناً ، إذا لم يكن منه بد ، وأسلوب الحكمة والسياسة حيناً آخر ، ومن ذلك إيقاعه ببعض القبائل كعشائر فليتة . وكان « من دأبهم سلب النفوس والأموال ، وقطع السابلة من عهد الحكومة الجزائرية ، وبعد انقراضها اشتد عدوانهم واتصل عيثهم » فاتخذ الأمير منهم موقفاً حازماً ، « إذ شتت شملهم ، وجعلهم عبرة لغيرهم » . كما يقول محمد بن عبد القادر . ومن ذلك أيضاً معالجته ما كان يشجر بين هذه القبيلة وتلك ، كإصلاحه بين بعض قبائل البربر « فى ناحية نهر مينة » ، حين وقع التهارش بينهم ، وجعلت الفتنة تسيطر عليهم ، فمضى إليهم وأصلح ذات بينهم ، وأخذ للمواثيق عليهم[1] .

ولم يقف خطر البداوة عند هذا الحد ، فقد كانوا مع ذلك من أكبر الثغر التى انفتحت فى خط الدفاع الذى أقامه الأمير عبد القادر، وفى الخطة التى رسمها .

(١) تحفة الزائر ص ١ : ١٠٥ .

وقد أراد أن يحصر الاستعمار فى المدينتين اللتين احتلهما ، ويجعل مقامه فيهما مليئاً بالمتاعب محفوفاً بالخوف ، بما يشنه عليه من غارات ، وما يمنع عنه من مواد التموين . ولكن الاستعمار لم يلبث أن استغوى بعض القبائل واستمالهم إليه ، كقبائل الدوائر وزمالة وغرابه ، واستغل نوازعهم البدائية وعصبيتهم القبلية ، فضووا إليه ، ثم أصبح منهم عملاؤه وعيونه .

وظل أمر هؤلاء البدو يتفاقم وينشر روح النكول والخور فى الجزائر فكثر منهم اللاجئون إلى المستعمر ، وانتشر بينهم دعاة الهزيمة ، وقد غلب عليهم اليأس ، ولم يستطيعوا مقاومة ما أصابهم من جهد ، وما تعرضوا له من خوف ، وكان المستعمر قد لجأ إلى أشد الأساليب وحشية وضراوة ، وأقواها إثارة للخوف والفزع .

وأخيراً انتهى هذا الصراع بين الروح القومية التى كان يمثلها الأمير عبدالقادر والروح القبلية التى كانت تمثلها هذه القبائل البدوية المغرقة فى البداوة ، وبعض الجماعات الأخرى كجماعة الكول أوغلى ، وهى الروح التى كانت — فى بعض وجوهها — ظهيراً للمستعمر ، إلى جانب ما استظهر به من وسائل البطش وأدوات الحرب . وكان من الطبيعى أن ينال هذا الصراع من الروح القومية التى كان قد أجهدها صراعها مع المستعمر الفرنسى ، فلم تلبث أمام هذا الصراع المزدوج أن استسلمت . وانتهت باستسلامها هذه المرحلة من مراحل التحول القومى . وقد سيطر الاستعمار على جميع المقاطعات الثمانية التى كانت خاضعة لحكومة الأمير عبد القادر ، والتى أقرته عليها معاهدة تافنا .

وبذلك فرغ المستعمر للاجهاز على بقايا الروح القومية ، ورسم الخطط التى قدر أن يجتث بها أصول هذه الروح ، ويمحو بها ملامح الشخصية الجزائرية ، ووضع التشريعات والنظم التى تتناول الحياة الجزائرية من جميع جهاتها .

وتتكفل له بناء جيل جديد يصنعه على عينه ، قد اندثر فيه كل شيء يذكره بالقومية الجزائرية ، وأنبتت فيه كل صلة تصله بماضيه أو بمن يعاصره من العرب والمسلمين ، ومات فيه كل شعور بشخصيته المستقلة ، فهو إما كائن مطموس ، وإما شخص فرنسى اللسان والتفكير والعاطفة . كما نعرض لذلك بعد ، إن شاء الله .

٤

وبعد ، فبنا الآن أن نتبين كيف كانت الحياة الثقافية فى الجزائر فى إبان الغزو الفرنسى ، وفى هذه المرحلة الأولى من مراحل تاريخها الحديث .

ليس بين أيدينا الآن من المصادر ما يمكن أن يؤدى الينا صورة دقيقة مفصلة عن هذه الحياة فى هذه الفترة . فقد دمر الغزو الفرنسى الحياة الجزائرية وقطع الأسباب بيننا وبينها . وان يكن من غير المستبعد عندنا أن تكون خزائن الكتب التى كانت منتشرة فى أنحاء الجزائر ، ما تزال محتفظة ببعض ما يمكن للدارس أن يرجع اليه ، ويستخلص منه هذه الصورة

على أننا - إلى أن تتاح لنا هذه الصورة بتفصيلاتها ودقائق ملامحها ، مؤلفة من أصولها العلمية الوثيقة - نفترض أنها كانت صورة علمية جديرة بالتقدير ، تمثل الحياة العلمية التى بقيت - فى أغلب الظن - متصلة السند منذ عهودها الأولى . وإذا كان قد اعترضها ما نحيفها وثال منها ونكر بعض معالمها ، فقد كان هنالك - فى مقابل ذلك - من العوامل ما بعث فيها ألواناً من النشاط ، كالهجرة الأندلسية ، فقد كانت الجزائر من أهم المهاجر التى هاجر اليها الأندلسيون فى القرن السادس عشر والسابع عشر ، يحملون معهم علومهم وآدابهم ، وتراثهم الفكرى والفنى ، ولا ريب أنه كان لهذه الهجرة أثرها فى تجديد الحياة العلمية والأدبية فيها ، وفى النهوض بها ، على النحو الذى نستطيع أن نتمثله فى شخصيات ذلك العصر ، ونخص منها شخصية أبى العباس محمد بن أحمد المقرى التلمسانى ، من أهل القرن السابع عشر . وفى كتابيه الكبيرين : نفح الطيب وأزهار الرياض ما يؤدى الينا صورة واضحة رائعة عنه .

ومع ذلك فنحن لا ندعى أن هذه الصورة بقيت بجميع ملامحها وتفصيلاتها

فى القرن الثامن عشر ، فلا ريب أنه كان هنالك من العوامل التى ليس من شأننا هنا أن نعرض لما ما أصاب هذه الصورة وطمس شيئاً منها . ولكنا نحسب أنها لم تتحول كثيراً عن أصلها ، ولم تفقد كثيراً من خطوطها الكبرى، بالرغم من حكم الولاة الأتراك وما ينسب اليهم من سوء السياسة . فقد كان لهؤلاء الولاة — على ما يعترفون به — فضيلتهم فى العناية بإنشاء المساجد والمدارس والمكتبات ، وجميعها مواطن ثقافة ومناهل علم ومعرفة ، مدفوعين إلى ذلك بالعاطفة الدينية ورجاء المثوبة والمغفرة . وإلى جانب هذا كانت البلاد غنية موفورة الثراء ، بمواردها الذاتية ، وبما كان يجلبه المجاهدون الذين كانوا ما يزالون يغزون الشواطىء الأوربية ، ويرجعون بالغنائم الوافرة والأسلاب الكثيرة . فكان فى هذه الثروة التى تتمتع بها الجزائر ما مكنها من الاستمرار فى إنشاء دور العلم ، والتشجيع على طلبه . وبذلك استمرت الحياة العلمية ماضية فى نشاط ، بالرغم مما اعترضها خلال القرن الثامن عشر ، مما انحرف بها ، أو أخضعها لبعض الاعتبارات ، أو أفقدها بعض مجالاتها .

وهذه الحياة العلمية هى التى كونت شخصية مثل شخصية السيد محمد بن على السنوسى ، فى أواخر ذلك القرن . وكان من أهل مستغانم ، وان يكن يدين بتكوينه العلمى للمغرب إلى جانب الجزائر . ولكن الحياة العلمية فى الإقليمين كانت ، فيما يبدو ، واحدة أو متشابهة .

كما أن هذه الحياة العلمية هى التى كونت شخصية عبد القادر بن محيي الدين الجزائرى ، العلمية والأدبية ، فى أوائل القرن التاسع عشر ، وهى الشخصية التى نستطيع أن نتخذ منها نموذجاً للحياة الثقافية ، فى إبان الغزو الفرنسى ، ونتمثل فيها نواحى هذه الحياة واتجاهاتها ، فى هذه المرحلة الأولى ، فلنجعل حديثنا عنها بياناً لما افترضنا ، وتفصيلا لما أجملنا .

٥

لا يذكر محمد بن الأمير عبد القادر الحسنى الجزائرى عن نشأة أبيه غير هذه العبارات التى أوردها فى سياق خاتمة كتابه التى جعلهـــا فى ذكر نسبه . قال :

« ولد — طاب ثراه — فى قرية القيطنة من أعمال وهران ، يوم الجمعة الثالث والعشرين من رجب ، سنة اثنتين وعشرين ومائتين وألف هجرية ، وسبعة وثمانمائة وألف مسيحية . ونشأ على عفة وصيانة ، مرضى الحال ، محمود الأقوال والأفعال . أخذ الفقه عن والده وغيره من العلماء ، ورحل إلى وهران وأخذ عن علمائها ، وكان حافظاً لـكثير من العربية ، والقدر الوافر من صحيح البخارى عن ظهر قلب ، مجازاً فيه عن والده . وسمعه من الشيخ الإمام المحدث أبى أحمد عبدالرحمن الـكزبرى بدمشق الشام ، أيام إقامته فيها صحبة والده ، وأخذ أيضاً عن الإمام ضياءالدين مولانا الشيخ خالد النقشبندى الشهرزورى[1] وكان يـكثر التردد إليه ، وانتفع منه، وبرع فىعلوم الشريعة والحقيقة[2] » .

فقد بدأ عبد القادر حياته العلمية إذن فى قرية القيطنة ، مسقط رأسه ، تلميذاً لأبيه السيد محيى الدين بن مصطفى ، وكان رجلا جليل القدر كبير المنزلة فى العلم والتصوف ، « بلغ من المعارف أقصاها ، ومن العوارف منتهاها ، وشدت إليه الرحال من الضواحى والأمصار ، لتلقى العلوم وتلقين الأذكار » كما يقول عنه حفيده . ففى هذا الجو الذى يمتزج فيه العلم والتصوف ، وتنعقد

---

(١) فى الأصل : السهروردى ؛ وهو تصحيف

(٢) تحفة الزائر ٢ : ٣٠٤

فيه مجالس العلماء يبثون العلم لطلابهم ، وحلقات المريدين حول شيخهم ، وقد جاءوا من هنا وهنا ، نشأ عبد القادر نشأته الأولى .

ولكنه لم يلبث أن توجه إلى مدينة وهران ، مركز الإقليم ، يتلقى عن شيوخها الذين أغفل ابنه ذكر أسمائهم .

ولا ندرى أوجهه أبوه إليها ، إذ كانت مركز النشاط العلمى والأدبى لإقليم وهران ، تتمثل فيها ألوانه المختلفة ، ويتوفر فيها من العلماء الكبار مالا يتوفر فى غيرها ، أم أنه إنما ذهب إليها فى صحبة أبيه حين ترك القيطنة إليها وذلك حين ضاق الباى ذرعاً بالمنزلة التى بلغها فى القيطنة ، وتوافد الناس عليه فيها ، واجتماعهم إليه بها ، مقبلين عليه ، مذعنين له ، فداخلته الوساوس وأخذته الريب ، وخشى أن يكون فى ذلك ما ينال من سلطانه ، فأخرجه إلى وهران ، وألزمه الإقامة فيها .

ومهما يكن من أمر فلا ريب أن وهران أتاحت لعبد القادر من صنوف العلم وصور النشاط الأدبى ، والاتصال بالبيئات المختلفة ، ما كان كبير الأثر فى تكوين ملكاته الأدبية التى سنراها بعد فيما بين أيدينا من آثاره .

على أن عبدالقادر أتيح له بعد ما كان يتاح لكثير من أبناء الجزائر الذين كانوا يحرصون على الرحلة إلى المشرق لأداء فريضة الحج وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإرضاء الحنين الكامن فى نفوسهم نحو هذا الأفق . وكانوا يقصدون فى خلال هذه الرحلة العلماء ويأخذون عنهم ، ويمدون ملكاتهم بما يجدونه لديهم . فحين أزمع السيد محيى الدين ، أبو عبدالقادر ، الرحلة للحج آثره باصطحابه ، فأتاحت له هذه الرحلة — إلى جانب الاتصال بالشرق الإسلامى عامة — الاتصال بالبيئات العلمية فيه ، والأخذ عن علمائه فى البلاد التى زارها ، وهى تونس ومصر والحجاز والشام والعراق . وقد امتدت إقامته

مع أبيه فى دمشق ، ومكن له ذلك من أن يكثر الأخذ عن شيوخها ، وقد خص ابنه بالذكر اثنين من هؤلاء الشيوخ ، أحدهما محدث والآخر متصوف .
أما الأول فهو الكزبرى ، عبد الرحمن بن محمد بن خلف ، أحد أئمة الحديث بالشام فى ذلك الوقت . وأما الآخر فهو أبو البهاء ضياء الدين خالد بن أحمد بن حسين النقشبندى، وكان إماماً من أئمة التصوف ، كما كان عالماً بفنون العلم ، معنياً بالأدب ، إذ يذكر فى ترجمته أنه كان مكباً على مقامات الحريرى يشرحها وإن لم يتم شرحها . ومات سنة ١٨٢٧ .

هذه جملة ما استطعنا أن نقف عليه من نشأة عبد القادر.

وفى هذه النشأة تبدو اتجاهات ثلاثة واضحة :

الاتجاه الصوفى . ولعله كان أول ما اتجه إليه ، وتفتح عقله عليه ، فقد كانت أسرته أسرة صوفية ، يسودها الطابع الصوفى فى معرفتها والوظيفة التى تؤديها منذ زمن طويل ، وقد توارثت مشيخة الطريقة القادرية جيلا بعد جيل .

والاتجاه العلمى ، متمثلا فى حفظ القرآن وتجويده وتفسيره ، وفى رواية الحديث ومعرفة أسانيده ، ودراسة الفقه فى كتبه السائدة فى المغرب ، والنحو ومتون اللغة .

والاتجاه الثالث اتجاه أدبى ، نزعت به اليه نزعة فنية تأخذه بالتعبير عن نفسه شعراً ونثراً، وقد أمدتها هذه الدراسات ، وما أتيح له أن يقرأه ويحفظه من شعر الشعراء السابقين .

وفيما بين أيدينا من آثاره ما يدلنا على المدى الذى بلغته ثقافته فى هذه الاتجاهات التى يداخل بعضها بعضاً ، والتى اشتركت جميعاً فى تكوين شخصيته العقلية .

ولعل الاتجاه الأدبى كان أول هذه الاتجاهات ظهوراً عنده ، وإن كان

الاتجاه الصوفى هو أولها تعرضاً له ، ولعله كان آخرها ظهوراً عنده ، إذ كان أكثرها حاجة إلى طول التأمل ومعالجة النفس ، ولم يتح له ذلك إلا بعد انتهاء حربه مع الفرنسيين ، وتعرضه لبعض المحن ، وافتراض الخلوة ، إلى غير ذلك مما جعل منه رجلا صوفياً فى تفكيره وتعبيره .

(١)

أما الاتجاه الأدبى فقد كان من الطبيعى أن يظهر فى شبابه الأول . وإذا كنا لا نستطيع اليوم أن نعرف بواكير ذلك الاتجاه ، فلا ريب عندنا فى أن ذلك الحدث الأكبر الذى تعرضت له الجزائر ، بغزو الفرنسيين لها ، واستيلائهم على مدينتى الجزائر ووهران ، كان من أول ما حرك شاعريته واستثار الجانب الأدبى عنده ، وكان إذ ذاك فى مقتبل شبابه ، لا يكاد يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره . وقد دفعه شبابه وغيرته الدينية والوطنية إلى المشاركة فى أعمال المقاومة التى كان ينظمها إذ ذاك أبوه الشيخ السيد محيى الدين ، فكان فى السرايا التى يوجهها لاستكشاف أمر العدو فى وهران ، والتصدى له والاشتباك معه ، وشارك فى بعض العمليات الحربية كموقعة خنق النطاح الأولى وخنق النطاح الثانية ، وبرج العين . وكانت هذه الوقائع التى أبلى فيها بلاء حسناً ، قبل البيعة له وتوليته إمارة الجزائر . ولعل بسالته فيها كان مما رشحه لها وطبيعى أن يكون فى ذلك ما يثير رغبته فى قول الشعر .

وكان مما صدر ذلك المصدر ، مما بقى بين أيدينا من شعره ، قصيدة مقصورة ذكر فيها هذه الوقائع ، مفتخراً بما أبلاه فيها . وقد اتخذ من الشعر القديم أنموذجاً يحاكيه ، كما هو الشأن فى شعر هذه الفترة عامة ، وإنما يختلف الشعراء فى مدى قدرتهم على محاكاته ، وفى التوفيق بين هذه المحاكاة والمعانى التى تضطرب بها نفوسهم ويريدون التعبير عنها .

وقد قال عبد القادر هذه القصيدة بعد الوقائع التى شهدها ، والإمارة التى تولاها ، لمكان أسرته أولا ، ولحسن بلائه فى هـذه الوقائع ثانياً ، فكانت مشاعر الفخر بنفسه وبأسرته تخالط قلبه ، ومن ذلك كان هذا الفخر بنفسه وبأسرته فيها ، وهو فى ذلك لم يخرج عن نمط الشعر القديم الذى ينسج على منواله . وكانت الخيل معتمد القوم فى حياتهم ، وفى حروبهم . والحديث عن الخيل حديث قديم ، وله فى الشعر مكانه الظاهر ، وهو فارس مفتون بركوبها فلا بأس فى أن يستهل قصيدته بذكرها وببعض شأنه معها :

توسد بمهـد الأمن ، قد مرت النوى ... وزال لغوب السير من مشهد الثوى
وعرجيادا جـــاد بالنفس كرها ... وقد أشرفت ـ مما عراها ـ على التوى
وكم قد جرت طلقـــا بنا فى غياهب ... وخاضت بحار الآل من شدة الجوى
وكم من مفازات يضل بها القطا ... قطعت بها ، والذئب من هولها عوى

ثم ما تلبث مشاعر الفخر أن تفيض على نفسه ، فلا بد أن تأخذ مكانها فى قصيدته ، فيذكر مآثر أسرته فى شتى فنون العلم ، دون أن ينسى فى خلال ذلك نفسه عالماً بارعاً ومحارباً رائعاً معاً :

ونحن لنـا دين ودنيا تجمعـــا ... ولا فخر إلا ما لنا يرفع اللوا
منـاقب مختـــارية قادرية ... تسامت ، وعباسية مجدها احتوى[1]
فإن شئت علما تلفنى خير عالم ... وفى الروع أخبارى غدت توهن القوى
لنا سفن بحـــر الحديث به جرت ... وخاضت فطاب الورد ممن به ارتوى
وإن رمت فقه الاصبحى فمج على ... مجـــالسنا تشهد لداء العنا دوا
وإن شئت نحوا فانحنا تلق ما له ... غدا يذعن البصرى زهـدا بما روى

(١) المختار وعبد القادر اسمان وردا فى سلسلة نسبه غير مرة، فالنسبة إليهما . وأما العباسية فلا أدرى ما يراد بها .

ولا تكفيه هذه الإشارة العابرة إلى « اخباره فى الروع » فإن لها تفصيلها الذى رواه ابنه ، ولا بد أن يتمدح به فى شعره . وذلك أنه فى موقعة خنق النطاح « كان بين الصفوف يحرض المسلمين على الثبات ، ويأمرهم بالتقدم ، فتحامل عليه أحد فرسان العدو برمحه فرت فى خلو الإبط الأيسر ، فشدعليها بعضده ، وهوى بسيفه على الفارس ، فقده نصفين . . . وفى هذا اليوم طعن فرسه ، وكان أشقر اللون ، ثمان طعنات بحربات العدو ، ثم رماه أحدهم بالرصاص فى رأسه فوقع به ، ولم يبال بذلك ، بل استقل واقفاً ، وثبت فى مركزه ، إلى أن قدم إليه أتباعه غيره ، فركبه ، واستمر فى القتال ، إلى أن انتصر المسلمون على عدوهم »

فهذه الصورة الرائعة من صور الفروسية جديرة بأن تكون موضوع فخره فى شعره ، إذ يقول :

ألم تر فى « خنق النطاح » نطاحنا غداة التقينا ، كم شجاع لها لوى
وكم هامة ذاك النهار قددتها بحد حسامى ، والقنا طعنه شوى
وأشقر تحتى كلمته رماحهم مراراً ولم يشك الجوى بل وما التوى

إلى أن يقول :

ويوم قضى تحتى جواد برمية وقد أحدقوا لولا أولو البأس والقوى
وأسيافنا قد جردت من جفونها وردت إليها بعد ورد لقد روى
ولما بدا قرنى ، بيمناه حربة وكنى بها نار بها الكبش يشتوى
فأيقن إنى قابض الروح فانكفا يولى ، فوافاه حسامى مذ هوى
شددت عليهم شدة هاشمية وقد وردوا ورد المنايا على النوى
نزلت ببرج العين نزلة ضيغم فزادوا بها حزناً وعمهم الجوى

فإذا فرغ من هذه الصورة . وحديثه عن رفاقه فى هذه الحرب من أهل « غريس » ، وما أشار إليه من شجاعتهم وإقدامهم ، انتقل إلى توليه إمارة الجزائر ، وسيرته فى هذه الإمارة :

لذاك عروس الملك كانت خطيبتى　　كفجأة موسى بالنبوة فى طوى
وقد علمتنى خير كفء لوصلها　　وكم رد عنها خاطب بالهوى هوى
فواصلتها بكراً : لدى تبرجت　　ولى أذعنت والمعتدى بالنوى ثوى
وقد سرت فيهم سيرة عمرية　　وأسقيت ظاميها الهداية فارتوى

هذه القصيدة التى أوردنا نماذج منها تمثل بواكير شعر عبد القادر . وفيها نرى شاعراً ناشئاً يحاول أن يتخذ من الشعر أداة للتعبير عن أحاسيسه والصور الماثلة فى نفسه ، ووسيلة إلى التغنى بتفوقه وامتيازه ، ولكنه يتعثر أحياناً بين المعانى والعبارات التى يؤديها بها ، والأوزان التى لا بد من التزامها . ومن ذلك ما نحس به فى قراءتها من نبو فى بعض الألفاظ ، أو تكلف فى بعض القوافى ، أو غرابة فى بعض الصور .

ولعل مرد هذا إلى أن عبد القادر لم يتح له — فى سنى دراسته — أن يوثق صلته بروائع الشعر العربى . فى عصوره الذهبية ، ولم يبلغ من ذلك المبلغ الذى يصقل شاعريته ويطوع أداته الفنية ، وينفى عن شعره ما نرى فيه من مظاهر التكلف والتعثر .

وربما كانت نشأته الصوفية أخذته بالإقبال على شعر المتصوفة دون تفرقة. وكثير من هذا الشعر لم يبلغ مبلغ الجودة ، مع ما يشيع فيه من المساهلة فى العبارة .

وفوق هذا فربما كان لبناء القصيدة على الروى المقصور أثره فيما نراه من ذلك فيها .

فهذا نموذج من شعر عبد القادر يمثل شخصيته الأدبية فى إبان شبابه الأول وحين كانت الأحداث تستثيرها ، وقد وقفت مرددة بين المثل الفنية التى نشأت عليها، والمشاعر التى هاجتها هذه الأحداث تريد أن تنطلق للتعبير عنها .

ولعل من أهم الأحداث الجديرة باستثارة شاعرية عبد القادر فتح تلمسان واستردادها من الاستعمار الفرنسى الذى كان بعد استقراره فى الجزائر ووهران يحاول أن أن يتخذ له قاعدة فى داخل البلاد ، فكان ما يزال يرنو إلى تلمسان يريد أن يتخذ منها هذه القاعدة . وجعل يدبر لذلك ويحتال له ويتوسل إليه باصطناع العناصر الخارجة على الوطن ، والمناوئة للأمير عبد القادر ، كبعض من أشرنا إليهم من قبائل الدوائر وزمالة ، وجماعات الكول أوغلى ، وهم أبناء الجند التركى ، كما جعل يستغوى بعض الشخصيات الناقمة على الأمير ، مستغلا خصومتها له وحقدها عليه، كبوشناق حاكم مستغانم ، والمازرى ، وابن أخيه مصطفى بن إسماعيل ، حتى استطاع أن يبلغ تلمسان وقد احتشد لمهاجمتها بما رأى الأمير أن لا قبل له به ، فأمر بإخلائها ، ودخلها الاستعمار الفرنسى .

ولكنه لم يكد يدخلها ويستقر بها حتى ضرب الأمير عليها حصاراً شديد الوطأة . جعل الإقامة بها ضرباً من العذاب . « فاشتد الأمر على أهلها ونفدت ذخائرهم وأجهدهم الجوع ، حتى أكلوا جميع ما حضرهم من أنواع الحيوان ، وأفضى بهم الأمر إلى أشنع الأحوال» كما يقول محمد بن عبد القادر. كما يذكر من صور هذه المجاعة التى ألحقها بهم الحصار أن القائد كافينياك رئيس العسكر الفرنسى المحصور فى قلعتها كان يشترى الهر الواحد بأربعين فرنكا لقوته ، وأما غيره فكان لا يجد فأراً يقيم به أوده[1] .

---

(١) تحفة الزائر ٢ : ١٦٧

واستمر هذا الحصار تسعة أشهر قاسى فيها الفرنسيون الذين احتلوها من الجهد ما أدخل الوهن فى قلوبهم . وكان لذلك أثره فى المفاوضات التى دارت بين الأمير وبين حاكم وهران لعقد معاهدة تافنا . وكان من أول ما أصر الأمير عبد القادر عليه تسليم تلمسان ، فلم يجد الفرنسيون بدا من التخلى عنها ، والإقرار فى هذه المعاهدة بتسليمها إليه . وبذلك عادت هذه المدينة إلى الحكم الوطنى ، وأنقذت من السيطرة الصليبية ، أو كما يقول الإعلان الذى صدر عن الديوان « انتشرت راية الإسلام فى معاهدها ، وشهد لله بالوحدانية فى مشاهدها ، وأقيمت الصلوات الخمس فى مساجدها » .

لا جرم كان فتح تلمسان من أهم الأحداث التى ملأت قلوب المسلمين غبطة ، وغمرت نفس الأمير رضـا . وقد تفتحت له شاعريته التى تمثلت هذه المدينة فى صورة فتاة جميلة تقدم غير واحد إليها ، يحاول أن يظفر برضاها دون جدوى فما تزال مانعة جانبها ؛ معتصمة بكبريائها ، حتى استطاع أن يتقدم هو إليها بعد أن اخترق الحجب التى أقامها العداة دونها فظفر بها ، وقد بادلته حبا بحب. فإذا هو يردد أبياتاً من الشعر تعبر عن هذه الصورة :

إلى الصون مدت تلمسان يداها ... ولبت فهذا حسن صوت نداها
وقد رفعت عنهـا الإزار فلج به ... وبرد فؤاداً من زلال نداهـا
وذا روض خديها تفتق نوره ... فلا ترض من زاهى الرياض عداها
وياطالما صانت نقاب جمـالها ... عداة وهم بين الأنام عـداها
وكم رائم رام الجمال الذى ترى ... فأرداه منها لحظها ومداهـا
وحاول لثم الخال من ورد خـدها ... فضنت بما يبغى وشط مـداها
وكم خاطب لم يدع كفئا « ولم يكن ... ليلثم منهـا » وشى ذيل رداها
وآخر لم يعقـد عليها بعصمة ... وما مسها مسا أبان رضاهـا

ولكنه لا يكاد ينتهى من صياغة هذه الأبيات حتى يجد نفسه مشغولا بتبعات هذا الفتح فهو منصرف عن المضى فيها ، فألقى بها إلى كاتبه السيد قدور بن محمد بن رويله ، وطلب إليه أن يجيزها ويكمل معناها ، فأخذ يولد من المعنى الذى ابتدأه الأمير وبنى عليه القصيدة حتى أتمها ، وأنشدها الأمير فى الحفل الذى احتشد الناس فيه لهذه المناسبة[1]

وحين ننظر فى هذه الأبيات لا نجد كبير فرق — من ناحية الخصائص الشعرية وصناعة النظم — بينها وبين القصيدة التى قالها منذ خمس سنين بعد البيعة له بالإمارة ، وإن كانت — فيما يبدو — أقل تكلفاً — فهى ما تزال حريصة على بعض صور الصناعة كالجناس ، كما تحتفظ بصورة العروس التى رأيناها فى القصورة رمزاً للامارة ، فهى ماتزال ماثلة هنا رمزا لتلمسان . ولا ندرى لعل هذا من أثر الشعر الصوفى الذى يكثر فيه هذا الرمز ، والذى لا نشك فى أن عبد القادر كان قد أقبل عليه فى نشأته الأولى بحكم هذه النشأة .

وهاتان القصيدتان تمثلان شاعرية عبد القادر فى هذه المرحلة الأولى من حياته ، وفى مناسبتين من أهم المناسبات فى هذه المرحلة ، وقد ظلت هذه الشاعرية تطبع حياته بطابعها فى مراحلها الأخرى ، بعد استسلامه واعتقاله فى فرنسا ، وكان شعره فى المعتقل أشبه بأن يكون مسلاة يتسلى بها ويزجى أوقاته بممارستها أما فى مقامه بدمشق فكان أكثر شعره مساجلات بينه وبين أصحابه ورواد مجلسه فيها ، أو تصويراً لبعض ألوان حياته بها ، وقد سهل شعره ورق وعذب وتخلص مما كان يداخله أحياناً من تكلف أو نبو ، كما يمكن أن نرى فى هذه القطعة التى تمثل شاعريته فى المرحلة الأخيرة من حياته ، وقد قالها فى وصف « دمر » إحدى ضواحى دمشق ، وكان يصطاف بها :

---

(١) تحفة الزائر ١ : ١٨٥ ، ديوان الأمير عبد القادر الجزائرى ص ١٧ (ط دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة بدمشق)

عج بى ـ فديتك ـ فى أباطح دمر ذات الرياض الزاهرات النضر
ذات المياه الجاريات على الصفا فكأنها من ماء نهر الكوثر
ذات الجداول كالأراقم جريها سبحانه من خالق ومصور
ذات النسيم الطيب العطر الذى يغنيك عن زبد ومسك أذفر
والطير فى أدواحها مترنم برخيم صوت فاق نغمة مزهر
مغنى به النساك يزهو حالها ما بين اذكار وبين تفكر
ما شئت أن تلقى بها من ناسك أو فاتك فى فتكه متطور
أين الرصافة والسدير وشعب بوان إذا أنصفتها من دمر [١]

هذه هى شاعرية عبد القادر الجزائرى نكتفى بهذا فى تمثلها وتبين بعض وجوه نشاطها .

على أن الجانب الأدبى فى شخصية عبد القادر لا يتمثل فى الشعر وحده ، بل فى النثر أيضاً، ولكنا نؤثر أن نرى هذه الصورة النثرية فى خلال الكلام عن الوجه العلمى من وجوه شخصيته

(ب)

وإذا كان ما ذكره ابنه عن نشأته ـ كما أوردناه ـ لا يذكر لنا كبير شيء عن ثقافته العلمية ، فلعلنا نستطيع أن نتمثلها تمثلا كافياً فيما بين يدينا من آثاره وأخباره

وكما انقسمت حياة عبد القادر إلى مرحلتين متميزتين فإننا نستطيع أن نصنف آثاره ـ تصنيفاً أولياً ـ إلى طائفتين : ما كتبه وهو فى المعركة مع الاستعمار الفرنسى والقبائل المتمردة أو الموالية للاستعمار ، وما كتبه بعد ذلك سواء فى المنفى أم فى مقامه بتركيا والشام

(١) ديوان الأمير عبد القادر الجزائرى ص ١٢٧ — ١٢٨ .

أما الطائفة الأولى فقد كانت ملتبسة بهذه المعارك التى كان يقودها ضد عملاء المستعمر والمستسلمين له والراضين به ؛ بين سؤال يوجهه إلى رجال الدين، يشرح فيه وجهة نظره فى هؤلاء العملاء ، ويطلب فيه جوابهم ، أو جواب يجيب به سائلا عن رأى الدين فى أمثال هؤلاء .

ذلك أنه كان من أشد الأمور ايذاء للأمير عبد القادر ، وأقواها فى النيل من مقاومته وجهاده ، لجوء طوائف من الجزائريين إلى المستعمر الفرنسى ، أو ركونهم إليه : يعيشون فى جواره ، ويدخلون فى ذمته ، وربما اصطنع منهم من يقاتل معه أو يكون عيناً له .

وبذلك كان من أهم ما يشغل باله هو محاولة إخراج هؤلاء الجزائريين الذين ركنوا إلى العدو وأقاموا فى جواره من هذا الجوار ، وردهم إلى أخوانهم المجاهدين ، يجاهدون معهم ، أو يكونون ردءا لهم ، أو يتولون من أمورهم ما يشغلهم الجهاد عنه ، أو يكفون على الأقل شرهم . فكان لا يزال يبعث إليهم من يعظهم ويذكرهم ، ويثير فى نفوسهم البواعث الدينية أو الحوافز القومية . ولكنهم كانوا قد استناموا إلى هذه الحياة التى يحيونها ، وآثروا السلامة التى يجدونها فيها ، فلم يستجيبوا لتذكير المذكرين أو وعظ الواعظين.

وعن هذا الموقف صدرت بعض الآثار التى احتفظ بها محمد بن عبد القادر، والتى نستطيع أن نرى فيها صورة من الجانب العلمى لشخصية الأمير عبد القادر كما نرى فيها — إلى جانب ذلك — لونا من ألوان الجانب الأدبى لهذه الشخصية يتمثل فى صياغته ، وجمال عبارته ، وتنسيق فكرته ، مما يرجع إلى تكوينه الأدبى .

ومن هذه الآثار كتاب كتبه إلى قاضى قضاة فاس ، السيد عبد الهادى العلوى الحسنى ، يسأله فيه أن يبين حكم الله « فى الذين دخلوا فى طاعة العدو

الكافر ، باختيارهم ، وتولوه ونصروه ، يقاتلون المسلمين معه ، ويأخذون مرتبه كأفراد جنوده . ومن ظهرت شجاعته فى قتالهم المسلمين يجعلون له علامة فى صدره ، يسمونها « لتور » ، عليها صورة ملكهم ، هل هم مرتدون أم لا ؟» ويضمن كتابه هذا سؤالا آخر عن الخوارج الاباضية ، وأسئلة أخرى عن الزكاة، وجواز أن يكون مصر فها كل ما فيه مصلحة للمسلمين ، إلى غير ذلك مما يتصل بالجهاد وتبعته[1].

ولكنه فيما كتب به لا يكتفى بالسؤال يوجهه ساذجاً ، كما يفعل الناس عادة فيما يريدون بيانه والفتيا فيه ، بل يمضى فى كل مسألة يعرضها فى تفريعها وذكر الوجوه المختلفة لها ، وأقوال العلماء فيها ، من متقدمين ومتأخرين ، ومن مغاربة ومشارقة ، كأبى محمد عبد الله بن وهب ، أحد أصحاب مالك من أهل مصر ، وأبى مروان ابن الماجشون من أقدم فقهاء المالكية ، وأبى أيوب بن بطال البطليوسى ، وأبى بكر بن العربى ، وأبى الوليد ابن رشد ، وجمال الدين بن الحاجب . كأنما هو قد درس المسألة حق درسها .

ولا ريب أن معرفة هؤلاء العلماء والإحاطة بآرائهم ، تدل على ثقافة فقهية وأصولية واسعة عميقة ، وعلى ما كان له من اتصال وثيق بهذه الدراسات مكن له من أن يستحضر هذه الآراء ويجمع بينها ، وهو يعانى الحرب التى لا تهدأ ولا تكاد تفتر .

وهناك أثر آخر كبير الخطر فيما نحن فيه من تبين شخصية عبد القادر العلمية إلى جانب ما يحمل من دلالة واضحة قوية على شخصيته الأدبية . وليس هو كتاب سؤال واستفتاء ككتابه السابق ، ولكنه — كما يقول ابنه فى العنوان الذى وضعه له — « جواب عن سؤال وجهه إليه بعض الأعيان من خواصه »

(١) تحفة الزائر ، ١ : ٢٥١ — ٢٥٢ .

وقد صدر عن تلك الحالة التي كان يعانيها ، والتي صدر عنها كتابه ذاك . وقد كان يرجو أن يكون في جواب قاضي قضاة فاس على ذلك الكتاب ما قد يحمل اللائذين بالعدو على أن ينفضوا عنه ، أو يقف — على الأقل — اتجاه المساهلة في الإقامة معه والركون إليه . ولكن الجواب كان جواب فقيه يعيش في عالم مقصور من الكتب المتأخرة والنصوص الجامدة والهمة المتواضعة ، لم يرتفع إلى مستوى الأحداث ، ولم يستطيع أن يدرك خطرها، أو يستشف ما وراءها . فلم يكن له فيما يبدو كبير أثر ، ولم يحقق ما كان يرجو الأمير منه . وذلك إلى أن هؤلاء المقيمين مع العدو ، الراكنين إليه ، المؤثرين بذلك العافية ، لم يكن شعورهم الديني من الرهافة بحيث يستجيب للدعوة التي يدعوهم إليها داعي الدين ، ويردعهم عن المضي فيما هم فيه .

وفي هذا الجواب الذي كتبه إلى « أحد الأعيان من خاصته » مايدلنا على مبلغ اليأس الذي جعل يداخل نفسه من أن يفيئوا إلى رشدهم ، أو يروا ما يدعوهم إليه دينهم ، وذلك إذ يقول له في صدر كتابه :

« أما بعد ، يا أخي ، فإني رأيتك متعطشاً لسماع ما لأئمتنا من الكلام في هؤلاء الذين ركنوا للعدو ، فأحببت أن أذكر لك ما روى عنهم في ذلك . ولولا أني رأيت شدة تعطشك وأوامك ، ما ذكرت لك شيئاً مما هنالك ، إذ ربما تفني في نصيحة أولئك الجهلة باقي أيامك من غير طائل ، ويكون تعبك في علاجهم كتعب من رام إصلاح الفاسد أو حياة الهالك . وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر ؟! » .

ولكن عبد القادر ، مع ذلك اليأس الذي كان — فيما يبدو — يملأ قلبه ، كانت تدفعه لكتابة هذه الرسالة — فوق ما ذكر من الاستجابة إلى رغبة صاحبه — روحه العلمية القوية وغيرته على الحقائق أن ينال منها تمويه ،

فمضى قدماً إلى شرح مايراه ويدعو إليه ويجادل عنه ، رغم ذلك اليأس ، ورغم شواغله المتصلة ، ورغم بعده عن مصادر العلم وموارده ، كما يقول فى ختام هذه الرسالة . وخاصة أن ما كان يدعو إليه من مقاطعة العدو ومناهضته، وما كان يراه من وجوب الهجرة والانضمام إلى المجاهدين ، لم يكن يجد آذاناً صما من العامة فحسب ، ولكنه وجد مع ذلك قوماً من العلماء يردونه ويجادلون فيه .

وقد تحدث عن هذا الصنف من العلماء فى هذه الرسالة ، بعد أن ذكر عامة الناس ، مقارناً بينهم وبين بنى إسرائيل فيما قصه الله عنهم ، فقد «كانوا يطلبون الجهاد ويتمنون ظهور النصارى ، فلما ظهر الجهاد نكصوا على أعقابهم ... ثم بعد هذا أرادوا من سلطانهم أن يجاهد وحده ، ويتكفل بردع العدو ويعرفه حده ... ثم بعد هذا صاروا ردءاً للكفار ، ومعينين لهم بالأنفس والأموال ، على من بقى متمسكاً بعروة الإسلام » . فإذا فرغ من الحديث عن هؤلاء العامة انتقل إلى الكلام عن أولئك العلماء ، فقال :

«وأعظم هؤلاء ذنباً، وأشدهم هلاكا ، وأبعدهم نجاة ، وأكثرهم فى الأمر سقوطاً ، رجلان : أحدهما رجل عرف الحق وعاند ، وهو أول من تسعر به النار ، إذ هو عالم لم ينفعه الله بعلمه ، وجحد الحق مع معرفته به أنه حق . . . . والآخر ، رجل قرأ بعض أبواب الفقه ، فعلم بعض أحكام الصلاة والنكاح والبيوع ، فظن أنه وصل إلى غاية استحق أن يسمى بها عالماً ، فصار يقول فى دين الله ما ليس له به علم ، ويفترى على الله الكذب ، « ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وكذب بآياته ، إنه لا يفلح الظالمون » . ويستدل بآيات وأحاديث وكلام الأئمة ، وهو مع ذلك لا يحسن النطق والتلفظ بمبانيها، فكيف له الغوص على معانيها » .

فقد كان فى موقف هؤلاء وأولئك مما يدعو إليه ما حفزه إلى أن يستجيب لروحه العلمية وغيرته الدينية ، فيكتب هـــذه الرسالة مناقشاً الذين تصدوا لدعوته إلى الهجرة ، ورأيه فيمن بقى فى ذمة العدو الكافر مناقشة علمية ، تدل على إطلاع واسع وتحصيل كبير ، وذاكرة قوية ، وقدرة على الاحتجاج بارعة ، مما لا نعرض هنا لتفصيله . فإنما كان بنا أن نشير إلى هـذه الرسالة لدلالتها على شخصيته العلمية ، وملامح هذه الشخصية ، فى هـــذه المرحلة من حياته التى استغرقها مجاهدة المستعمر ، فاتخذت شخصيته العلمية هـــذه الصورة[١] .

وإلى جانب ذلك كان من مظاهر شخصيته هـذه ، فى هـذه المرحلة ، جلوسه للتدريس وقراءة بعض الكتب العلمية ، فى بعض الأوقات التى يحس فيها شيئاً من فراغ البال ، كما حدث بعد معاهدة تافنا . يقول ابنه عنه : «وكان رضى الله عنه بعد فراغه من الاشتغال بالأمور المدنية يشتغل بالأمور الدينية ، إما فى نفسه وإما للعموم . فكان مدة وجوده بالمدية يدرس درساً عاماً فى التوحيد . وكان يوم ختمه أم البراهين للسنوسى يوماً مشهوداً حضره العلماء من القطر الجزائرى»[٢] .

وبانتهاء هـذه المرحلة من حياة الأمير عبد القادر سنة ١٨٤٨ تبدأ مرحلة أخرى انتهت بوفاته سنة ١٨٨٣ . وقد أمضاها ما بين فرنسا أسيراً بها ، وبين تركيا ضيفاً عليها ، والشام مقيماً فيها ، مرتحلا فى خلال ذلك إلى الحجاز ومصر وفرنسا .

---

(١) تحفة الزائر ١ : ٢٦٨ — ٢٧٦ .

(٢) تحفة الزائر ١ : ١٩١ والسنوسى هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن عمر التلمسانى ، من علماء القرن التاسع .

وقد برزت فى هـذه الرحلة شخصيته العلمية ، فى جميع مواطن إقامته ، متخذة صوراً مختلفة ، من التدريس وللذاكرة ، إلى كتابة الكتب وتدوين الرسائل ، إلى الحوار والمناظرة .

أما التدريس فقد كان يراه أول ما يجب عليه لقاء أهله وأتباعه وحاشيته الذين رافقوه فى معتقله بفـرنسا ، فى مدينة امبواز ، وقد أمضى بها أربع سنوات ، « وداوم فى تلك المدة على تدريس العلم وإفادة الطلبة من جماعته ، فقرأ الصغرى للسنوسى فى علم الكلام ، ورسالة الإمام محمد بن أبى زيد القيروانى فى الفقه على مذهب الإمام مالك ، وغيرهما من المصنفات المفيدة » . وكان حرصه على تدريس علوم الدين والعربية فى هذه البيئة النصرانية الفرنسية مما جعل كبار مرافقيه من أهل العلم يشاركونه القيام به ، فصار معتقلهم مدرسة يتولى فيها التدريس إلى جانبه أخوه الكبير السيد محمد سعيد ، وأخوه السيد مصطفى ، وخليفته السيد مصطفى بن التهامى(١) .

وكذلك كان صنيعه حين أذن له أن يغادر فرنسا ويذهب إلى تركيا ، فاتخذ من مدينة بروسه مقاماً له . وما كاد يستقر بها حتى توافد عليه الجزائريون الذين كانوا قد تركوا الجزائر إلى تونس ومصر والحجاز والشام ، فكانت له بهم وبأهله وأصحابه مجالس علم حافلة . قال ابنه محمد . « وكان رضى الله عنه — يصلى الصلوات الخمس فى الجامع القريب من الدار ، المعروف بجامع العرب ، ويقرأ فيه الدروس ، فقرأنا عليه ألفية ابن مالك بشرح المكودى ، والسنوسية بشرح المصنف ، والايساغوجى للفنارى . ويقرأ لنا فى الدار الإبريز فى مناقب سيدى عبد العزيز الدباغ(٢) » .

---

(١) تحفة الزائر ٢ : ١٧ .
(٢) المصدر نفسه ٢ : ٥٤ .

وأكبر الظن أن روحه العلمية الحريصة على الدرس والمدارسة أخذته بهذا المسلك فى أثناء إقامته الطويلة فى دمشق . وربما كانت للمذاكرة مع العلماء الذين كانوا مايزالون يزورونه ويجلسون إليه ، أغلب عليه فيها .

وأما التأليف فقد ذكر الزركلى فى ترجمته كتباً ثلاثة له ، غير ديوان شعره الذى جمعه ابنه محمد ، هى : ذكرى العاقل ، والصافنات الجياد ، والمواقف(١)

أما « ذكرى العاقل » فهو رسالة صغيرة قص ابنه محمد قصتها ، فى أثناء كلامه عن إقامة أبيه فى بروسه . قال :

« . . . ثم بلغ الأمير أن علماء باريس تذاكروا فى علماء الإسلام المشاهير وانتهى بهم الحديث إلى ذكر الأمير ومؤلفاته التى اتصلت بأيديهم ، ومواعظه التى كان يلقيها على من يجتمع به منهم ، وأجوبته على أسئلتهم التى كانوا يبعثونها إليه ، فوقع اتفاقهم على أن يثبتوا اسمه فى ديوان العلماء ، من كل أمة وملة ، من أهل القرون الماضية ، فاثبتوه ، وكتبوا إليه يخبرونه بذلك ، فكتب إليهم رسالة ضمنها علوماً جمة ، ذكر فى خطبتها ما نصه :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين ، ورضى الله تعالى عن العلماء العاملين . أما بعد ، فإنه بلغنى أن علماء باريس كتبوا اسمى فى ديوان العلماء ، ونظمونى فى سلك العظماء ، فحمدت الله على ستره على ، حتى نظر عباده بالكمال إلى . وقد أشار على بعض المحبين منهم أن أكتب إليهم بعض الرسائل ، فكتبت هذه العجالة ، وسميتها : « ذكرى العاقل ، وتنبيه الغافل » ، ورتبتها على مقدمة وثلاثة أبواب ، وفى كل باب فصل وتنبيه وخاتمة . أما المقدمة ففى الحث على النظر وترك التقليد وذمه . وأما الباب الأول ففى

---

(١) الأعلام ٤ : ١٧٠ .

فضل العلم والعلماء، وفيه فصل فى تعريف العقل الذى به إدراك العلوم، وتكملة فى القوى الأربع التى إذا اعتدلت فى الإنسان كان إنساناً كاملا ، وتنبيه فى فضل إدراك العقل على إدراك الحواس ، وفضل مدركاته على مدركاتها ، وخاتمة فى انقسام العلم إلى محمود ومذموم . وأما الباب الثانى ففى فضل العلم الشرعى ، وفيه فصل فى إثبات النبوة التى هى منبع العلوم الشرعية ، وفيه تنبيه فى معرفة النبي وما يتعلق بالنبوة ، وخاتمة فى للمكذبين بالأنبياء . وأما الباب الثالث ففى فضل الكتابة وبيان عدد كتابات الأمم ، وفيه فصل فى الكلام على كتابة الأمم وواضعيها ، وما ينجر إلى ذلك، وتنبيه فى بيان حروف الكتابة العربية، وخاتمة فى احتياج الناس إلى التصنيف وما يتعلق به[1] » .

وأول ما يدل عليه كلام السيد محمد بن عبد القادر هو أن أباه كان قد خلق ، وهو معتقل بفرنسا ، جواً علمياً ، وأثار بين الفرنسيين حركة فكرية خاصة ، بما كان يؤلفه فيصل إلى أيدى علمائهم ، وبما كان يلقيه عليهم فى اجتماعه بهم ، وبما كان يكتبه فى جواب ما كانوا يوجهون إليه من أسئلة .

ونحن نعلم — مما يمكن أن يكون مصداقاً لهذا — أنه فى أثناء إقامته فى أمبواز انعقدت الصلة بينه وبين بعض الفرنسيين . ومنهم من ترجع صلتهم به إلى العهد السابق حين كان فى الجزائر يقود الحرب ، ويتولى أمر الشعب الجزائرى ، كالكولونيل دوماس . وقد عين مرافقاً له فى أمبواز ، فأنس به « لأنه كان أيام معاهدة تافنا بين الأمير وفرنسا وكيلا عنده ، فى عاصمته

(١) تحفة الزائر ، ٢ : ٦٣ . وقد وقفت على نسخة مطبوعة من ذكرى العاقل بدار الكتب المصرية (رقم ٢٨٩٥ تصوف) ليس بها تاريخ الطبع ولا مكانه . وفى نهايتها : « انتهى ما أوردناه من هذه العجالة ، وكان الفراغ من تسويدها فى يوم الاثنين ١٤ من رمضان سنة ١٢٧١ هجرية . والحمد لله أولا وآخراً وظاهراً وباطناً » . وهذا التاريخ يوافق أواخر إقامته فى بروسه ، قبل أن يقرر الانتقال إلى دمشق .

معسكر[١] » . ثم خلف دوماس فى هذه الوظيفة القبطان بواسنى . وربما كان من أصحاب الصلة القديمة به فى الجزائر . وممن يعرف العربية . كما نعرف من هؤلاء أيضاً الأسقف دويبش ، أسقف الجزائر ، ويذكره السيد محمد عبد القادر بأنه كان « أيام الحرب يكاتب الأمير ، ويظهر التودد إليه . وكان الأمير كثيراً ما يستشيره فى أمور سياسته ، فيجيبه بما يطابق الواقع من غير حيف ولا مكر[٢] » .

ولعل من الأسئلة التى عناها السيد محمد فى قصة كتاب ذكرى العاقل ما كتب به دوماس إلى الأمير عبد القادر ، فأجابه عنها إجابات مفصلة . وقد أوردها فى فصل من كتابه ، جعل عنوانه : « ذكر ما أجاب به الأمير عن أسئلة أرسلها إليه الجنرال دوماس الفرنساوى » ، ثم أعاد التعريف بدوماس هذا فقال : « وهذا الجنرال من أكبر قواد الجنود الفرنساوية فى الجزائر الذين اشتهروا بالإقدام فى حروبها العظيمة ووقائعها الجسيمة ، مع الأمير .

وكان تعين عنده وكيلا بام عسكر ، فى المعاهدة الأخيرة ، وتعلم اللسان العربى ، واطلع على أشياء من أحوال هذا الوطن ، فكتب أسئلة تتعلق بذلك وبعثها إلى الأمير وطلب الجواب عنها » .

وجملة هذه الأسئلة عشرون سؤالا ، وكلها فى شأن المرأة العربية المسلمة . وقد أجاب عليها الأمير إجابات مستفيضة وافية[٣] .

وربما كانت هذه المسائل التى عالجها الأمير عبد القادر فى إجاباته العشرين وبين فيها وجهة النظر الإسلامية ، وأوضح فيها حقيقة المرأة العربية ، أول

---

(١) تحفة الزائر ٢ : ٧ .

(٢) المرجع نفسه ٢ : ٣٧ .

(٣) المرجع نفسه ٢ : ١٦١ — ١٨٥ .

ما كتب من هذا القبيل بعد حدوث الاحتكاك بين المسلمين والأوربيين ، وتكوين هؤلاء صورة سطحية مشوبة بكثير من الخطأ والضلال عن المرأة المسلمة والنظم التى تخضع لها ، ومكانها فى المجتمع، وقد صدروا بها عن مشاهدات خاطفة ، وعن بعض ما صارت إليه المرأة فى العصور المتأخرة ، وفى البيئات المتخلفة ، وتأثروا فيها بما هو كامن فيهم من عصبية على المسلمين ، وما دفعت إليه هذه العصبية من ازدراء وكراهية . فعندهم ـ كما تعبر عنه هذه الأمثلة ـ أن الرجل لا يملك أن يرى خطيبته ، وأن المهر الذى يقدمه لزوجته يجعل زواجه منها صورة من صور الملكية ، ويجعلها « بمثابة الأشياء التى تشترى » ، وأنها كائن ممتهن ، يحملها زوجها فوق طاقتها من أعمال الخدمة ، ولا تشاركه فى شىء من مهامه ، وليس لها أن تدخل المسجد أو تنال شيئاً من التأديب ، إلى غير ذلك مما تصوروه فيها ، ووهموه من بعض أمورها ، ورأوه فى بعض النظم الإسلامية الخاصة بها ، كالطلاق وتعدد الزوجات .

وقد تناول الأمير عبد القادر هذه الصورة محاولا تصحيحها وإزالة التشويهات العالقة بها ، مبيناً وجه الحق فى وضع المرأة العربية فى الشريعة الإسلامية والعادات العربية ، مستشهداً بالآثار المختلفة يؤيد بها رأيه ، ويوضح بها صورة المرأة المسلمة ، وقد يقارن بين المرأة فى الشريعة الإسلامية وفى الشرائع الأخرى ، وقد يرجع فى هذه المقارنة إلى آيات من العهد القديم يذكرها ، معينا الاصحاحات التى وردت فيها .

وأكبر الظن أن هذا المصدر من مصادر ثقافة الأمير عبد القادر اتيح له فى أثناء إقامته بفرنسا . وقد رأينا اتصاله ببعض رجال الدين المسيحى ، ومنهم من كان يتصدى له ، وتبلغ به السذاجة أو قوة الاعتداد بنفسه إلى أن يطمع فى صرفه عن دينه ، وتحويله إلى المسيحية[1] .

---

(٢) انظر تحفة الزائر ٢ : ٢٠٠

على أن الزركلى أغفل من كتابات الأمير عبد القادر رسالة أشار إليها ابنه ، وعرف بها ، ونقل عنها ، وذكر أنها مما ألفه فى مدة إقامته بأمبواز ، وقد سماها : « المقراض الحاد ، لقطع لسان الطاعن فى دين الإسلام من أهل الباطل والالحاد » .

ولعل فى ايراد ما أورده من مقدمتها ما يكفى فى التعريف بها ، وبيان هذا اللون من ألوان نشاطه العلمى فى هـذه المرحلة ، والملابسات التى لابسته ، والجو الذى صدر عنه . قال :

« أما بعد ، فإنى فى أيام إقامتنا فى امبواز ، عند الدولة الفرنساوية الفخيمة ، تكلم أحد رؤساء الدين المسيحى فى الإسلام ، وقال : إن الغدر وعدم الوفاء فيه غير قبيح ولا منهى عنه ، فسمعه بعض من له محبة ورغبة فى إظهار الحق ، فجاء إلى ، وألح فى الطلب على ، أن أضع فى هذا الأمر رسالة تتضمن ما فى شرع الإسلام مما يكذب قوله ، وينبذ سخفه ، فاعتذرت إليه بالحال التى نحن فيها . ثم أعاد الطلب وشدد فيه . وذلك حين افضت رياسة الجمهورية إلى فرع شجرة عظماء ملوكهم ، البرنس لويس نابليون بونابرت ، فأجبته معترفاً بأنى لا أصلح أن أكون تلميذاً لعلماء الإسلام ، فضلا عن أن أكون فى جملتهم .

ولما كان المقصود من هذه الرسالة بيان حكم شرع الإسلام فى الغدر والوفاء ، وذلك مستلزم لذكر كلام المشرع ، وكلام الله تعالى المنزل عليه ، وكلام التابعين له حقيقة ، لزمنى ضرورة تقديم كلام فى إثبات الالوهية ، ثم فى إثبات النبوة والرسالة ، لأن هـذه الأمور مرتب بعضها على بعض ، فهى كالأساس لما نذكره . وقد رتبت هذه الرسالة على مقدمة وثلاثة أبواب: المقدمة فى الـكلام على العقل وما يتعلق به . الباب الأول فى إثبات الالوهية ، وفيه ثلاثة فصول : الأول فى النظر فى خلق الأرض وما يتولد منها ، والثانى فى النظر

(١) المصدر نفسه ٢ : ٢٧ — ٣٥ .

فى خلق السموات وما فيها من بديع الحكم ، الثالث فى خلق الإنسان الذى هو المقصود بالإيجاد ، وكل شىء خلق لأجله . الباب الثانى فى إثبات النبوة مع الرسالة ، وفيه فصلان : الأول فى إثبات الرسالة على الإطلاق والعموم ، والثانى فى إثبات رسالة مشرع دين الإسلام على الخصوص . الباب الثالث فى موضوع الرسالة ، وهو بيان ماورد فى الشرع من وجوب الوفاء والأمر به ، وترك الغدر والنهى عنه ، وما يتعلق بذلك كالصدق والكذب . وترتيب هذه الرسالة وضعا هو بحسب الترتيب عقلا ، لأن إثبات الالوهية مرتب على وجود العقل وإثبات النبوة والرسالة مرتب على إثبات الالوهية ، وبيان ما يحمد وما يذم من الأقوال والأفعال والصفات مرتب على إثبات النبوة والرسالة[1] » .

هذه هى الرسالة التى وضعها الأمير عبد القادر فى امبواز — كما رسم فى هذه المقدمة خطوطها الكبرى — ليجلوبها صورة من صور الخلق الإسلامى ، ولينفى عنها ما أراد رجال الدين المسيحى أن يشوهوها به . وهى تشير إلى بعض ما كان يناله منهم ، وما كان يجبه به من عصبيتهم وسوء فهمهم ، كما يدل عليه أيضاً العنوان الذى وضعه لهذه الرسالة .

وما بقى لنا منها ، مما احتفظ به ابنه فى كتابه عنه ، يدل على مبلغ توفيقه فى جلاء الصورة التى أراد أن يجلوها ، دون أن ينفعل بموقف رجال الدين المسيحى منه ، فيقابل تعصبهم بمثله ، فقد كانت الروح العلمية هى الغالبة عليه ، والنظرة الموضوعية هى الموجهة له ، فلا محل للتعصب ، وخاصة أنه لا يضع الإسلام من الأديان الأخرى موضع الخصومة ، فهو ليس إلا امتداداً للفكرة الدينية التى تمثلت قبله فى اليهودية والمسيحية ، إذ هو — كما يقول — « دين جامع لكل ما تفرق فى الأديان والشرائع السالفة ، كما قال المسيح عليه السلام :

---

(١) تحفة الزائر ٢ : ٢٧ — ٢٨ .

ماجئت لأبطل التوراة ولكن جئت لأكمله ، فكذلك محمد عليه السلام ماجاء ليبطل التوراة والإنجيل ، ولكن جاء ليكملهما[1] » .

وكذلك لم تأخذه فى جلاء صورة الخلق العربى نعرة قومية تدفعه إلى إهدار فضائل غير العرب ، فهو على اعتداده بالعروبة ، واشادته بالفضائل العربية لا ينكر نصيب سائر الأمم من الفضيلة ، كما يبدو ذلك فى سياق كلامه عن الوفاء والصدق : « وباقى الأمم ، وان كانت تفى بالعهد وتستقبح الغدر والكذب ، فالأمة العربية أكثر وأشد من جميع الأمم فى ذلك . فإنهم فى جاهليتهم كانت لهم نفوس زكية ، وأخلاق مرضية ، وأفعال كريمة ، وهمم عظيمة ، وعقول راجحة ، وآراء ناجحة ، وشرف صميم ، وأنفة من كل خلق ذميم . طبعوا على خصال الفضل والمروءة ، قبل أن تكون بينهم النبوة[2] »

وبعد هذا كله فإننا فى هذه المقدمة ، وفى مقدمة « ذكرى العاقل » نرى فى الأمير عبد القادر مؤلفا يجيد صناعة التأليف ، من حيث التقسيم والترتيب ، والتصنيف والتبويب ، والتزام للمنهج العقلى ، من الانتقال من العام إلى الخاص ، ومن المطلق إلى المقيد . فنتبين من ذلك مظهراً جديداً من مظاهر الروح العلمية ، بما يدل عليه من عقل منظم ، ومنطقية غالية

وذلك جانب واضح من جوانب شخصيته العلمية إلى ما رأينا من ملامح هذه الشخصية متمثلة فى سعة المعرفة ، والإحاطة بالثقافة الإسلامية والعربية ، وفى رحابة الأفق ، والموضوعية وروح الحيدة ودقة الملاحظة . وكان ذلك ـ فى أكبر الظن ـ مما جعله عند علماء الفرنسيين الذين عرفوه ممثلا للعلم الإسلامى العربى .

---

(١) المصدر نفسه ٢ : ٢٨ .

(٢) المصدر نفسه ٢ : ٣٢ .

(ح)

أما الوجه الثالث من وجوه شخصية الأمير عبد القادر فهو الوجه الصوفى .

والصوفية ـ كما قلنا ـ هى أول ما اتجه عبد القادر اليه، وتفتح عقله ووجدانه عليه ، بحكم البيئة التى ولد بها ونشأ فيها . فلا جرم كان لهذا الاتجاه نصيب كبير فى تكوينه الوجدانى والعقلى، وان اعترضت دون ظهوره الاحداث التى اعترضت حياته ، ورسمت منذ بلغ مبلغ الشباب طريقه ، بعيداً عن جوالمتصوفة والدعوة الصوفية . وان كنا لا نبعد أن هذا الاتجاه ـ إلى جانب ما كان يبدو على عبد القادر من شواهد نبوغ ، وما أظهر فى الحرب من بسالة ـ كان مما رشحه للامارة وقيادة للمقاومة ، كما كان له ـ بما ملأ به قلبه من إيمان، وما أخذه به من شخوص إلى الله ، واستمساك بالمبدأ ـ أثره فى صموده للاحداث ، واستبساله فى جهاد العدو ، خمسة عشر عاماً ، اجتمع فيها من أسباب الفشل وعوامل الهزيمة ما يجعل هذا الصمود من الأمور الفريدة التى تثير الإعجاب والعجب معا .

ومهما يكن من أمر فقد ظلت هذه النزعة كامنة فى نفسه ، تمدها أسباب مختلفة . ومن الطبيعى أن يكون للمحن التى تعرض لها منذ تخلى عنه من كانوا موضع الرجاء عنده ، إلى أن صار إلى المعتقل يعانى مضاضة الأسر فى بلاد عدوه وقد ضربت عليه العزلة ، « فى مكان لا يقتحمه الأسد الهصور ، بل تنقطع دونه أجنحة النسور » ، كما يقول هو فى صفته . من الطبيعى أن يكون لذلك أثره فى الخلوص إلى التأمل، والاستمرار فى مراقبة النفس واستبطانها ، والاستشراف إلى الملأ الأعلى ، وفى تيقظ ذلك النزوع الصوفى الذى ظل حيناً من الدهر كامناً فى أعماقه .

ومن هذه الحالة التى سيطرت عليه صدرت هذه النجوى التى اتجه بها ،

وهو فى أمبواز ، إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من أهل الملأ الأعلى ، فى صورة قصيدة من أجمل الشعر ، يبدؤها بقوله ، معبرا عن الحنين الذى يغمر قلبه :

ماذا على ساداتنا أهل الوفا   لو أرسلوا طيف الزيارة فى خفا

ويقول فيها :

يا أهل طيبة مالكم لم ترحموا   صبا غدا لنوالكم متكففا
لا تجمعوا بين الصدود وبعدكم   حسبى الصدود عقوبة ! فلقد كفى
لم أدر شيئا قبل معرفة الهوى   حبى لكم ما كان قط تكلفا
قلبى الأسير لديكم والجسم فى   أسر العداة معذبا ومكتفا[1]

حتى إذا أذن الله أن يطلق سراحه ، وأن يترك فرنسا إلى أرض الخلافة الإسلامية ، كانت بلاد الحجاز ملء قلبه ، وكان حج البيت الحرام وزيارة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومشاهدة معالم الحب الإلهى مهوى فؤاده وغاية حنينه ، فما إن تاحت له الفرصة حتى انطلق إليها . وما كاد يبلغ مكة حتى « أقبل على عبادة الله تعالى عند بيته الحرام ، وفى مسجده الحرام ، وتفرغ بها من كل شىء يتعلق بالدنيا وأهلها . واختار الشيخ محمد الفاسى المجاور بمكة المكرمة أستاذاً له ، فأخذ عليه الطريق ، وتلقى شؤنها عنه ، ولازم الرياضة والخلوة والاجتهاد ، وعكف على مافى تلك الطريقة الميمونة من الوظائف والأوراد . إلى أن رقى معارج الأسرار ، إلى حظائر القدس ذات الأنوار ووقعت له كرامات وخوارق ، وأحرز بقوة سعده أحوالا سنية ، وأنفاساً محمدية ، وما تم له الارتقاء ، إلا وهو فى غار حراء ، لأنه انقطع فيه أياماً

(١) تحفة الزائر ٢ : ٣٥ — ٣٦ .

عديدة ، إلى أن جاءته البشرى بالمرتبة الكبرى ، وتفجرت ينابيع الحكم على لسانه ، وفاضت عيون الحقائق بين أدواح جنانه » كما هو نص عبارة ولده محمد عنه(١) .

لقد كانت نفس عبد القادر ، بحكم النشأة الأولى ، مهيأة لبلوغ الغاية التى يسعى المتصوفة إليها ، وهى إدراك الحقيقة الإلهية والاستغراق فيها ، فكان ما رأينا من الرياضة التى أخذ نفسه بها ، والخلوة فى البيت الحرام وفى غار حراء ، والاستشراف الدائم إلى أنوار للملأ الأعلى ، فى هذه البقاع المقدسة ، مما غمر قلبه بالنور الإلهى ، وجعله يحس أنه بلغ الغاية التى طالما تشوف إليها ، وهفت روحه إلى مشرقها . وأن الفيوضات الربانية قد فاضت عليه ، ونقلته إلى عالم الحقيقة المرموقة .

وها هى ذى شاعريته تتجاوب مع هذه الحالة ، فتتدفق بقصيدة من الشعر بالغة الطول ، تتجاوز المائة من الأبيات ، هتف فى مطلعها بما بلغه من أنس وسعادة ، بعد الوحشة التى كان يعانيها ، والظلمات التى كان يكابدها :

أمسعود جاء السعد والخير واليسر ... وولت جيوش النحس ليس لها ذكر
ليالى صدود وانقطاع ووحشة ... وهجران سادات؛ فلا ذكر الهجرا
فأيامها أضحت قتاماً ودجنة ... ليالى لا نجم يضىء ولا بدر
فراشى فيها حشوه فيها الهم والضنى ... فلا التذ لى جنب ولا التذ لى ظهر

وانه فى هذه الوحشة الموحشة ، والظلمة القاتمة ، والانقطاع ، ومعاناة الصدود والهجر ، يدعو ويلح فى الدعاء ، أن يبدل الله حاله ، ويصل ما بينه وبين هواه ، إلى أن أتاح الله له الوسيلة إلى بلوغ مبتغاه ، فى شخص أستاذه الذى قاد

---

(١) المرجع نفسه ٢ : ١٣٦ — ١٣٧ .

خطاه ، ووصل حباله ، الشيخ محمد الفاسى . وكأنما كان هو الذى دعاه إلى البيت الحرام :

ليالى أنادى ، والفؤاد متيم ونار الجوى تشوى بما قد حوى الصدر
أمولاى طال الهجر وانقطع الصبر أمولاى هذا الليل هل بعده فجر
أغث يامغيث المستغيثين والها ألم به من بعد أحبابه الضر
أسائل كل الخلق : هل من مخبر يخبرنى عنكم فينعشنى الخبر
إلى أن دعتنى همة الشيخ من مدى بعيد : الا فادن فعندى لك الذخر
فشمرت عن ذيلى الإزار وطار بى جناح اشتياق ليس يخشى له كسر
إلى أن أنخنا بالبطاح ركابنا وحطت به رجلى وتم لى البشر

ثم يمضى بعد ذلك فى الحديث عن أستاذه ، مثنياً عليه أبلغ الثناء ، مشيداً به أبلغ الإشادة ، إذ كان هو المعاذ الذى غاذبه ، والمنقذ الذى أنقذه ، ووصل بالغاية القصوى أسبابه ، بل هو الذى رد إليه الحياة ، الحياة الحقة ، بعد أن كان رفاتاً رميا :

عياذى ، ملاذى ، عمدتى ، ثم عدتى وكهفى إذا أبدى نواجذه الدهر
غياثى من أيدى العداة ومنقذى منيرى مجيرى عندما غمنى الغمر
ومحيى رفاتى بعد أن كنت رمة وأكسبنى عمرا لعمرى هو العمر

لقد بدأ إذن حياة جديدة ، هى الحياة الحقة التى لا زيف فيها ، منذ فاضت عليه فيوضات الحق ، وتجلت له تجلياته وأشرقت عليه أنواره . وقد أخذته النشوة من جميع أقطاره ، منذ تناول كأس المعرفة وشرب خمرها التى :

هى العلم كل العلم ، والمركز الذى به كل علم ، كل حين ، له دور
فلا عالم إلا خبير بشربها ولا جاهل إلا جهول به غر
ولا غبن فى الدنيا ولا من رزيئة سوى رجل من نيلها حظه نزر

ولا خسر فى الدنيا، ولا هو خاسر ... سوى والله والكف من كأسها صفر
إذا زمزم الحادى بذكر صفاتها ... وصرح ما كنى ونادى نأى الصبر
وقال اسقنى خمراً وقل لى هى الخمر ... ولا تسقنى سراً إذا أمكن الجهر
وصرح بمن تهوى ودعنى من الكنى ... فلا خير فى اللذات من دونها ستر

إلى آخر هذ النمط الذى يمضى فيه على النحو الذى نراه عند شعراء المتصوفة من قبله ، كابن الفارض[1] .

وهكذا برزت صوفية عبد القادر واضحة جلية ، متخذة هذه الصورة الأدبية ، فى مقامه بالحجاز ، وتردده بين مكة والمدينة . وقد امتدت هذه الرحلة سنة وبعض سنة ، لم يجد بعدها بداً من العودة إلى مقامه فى الشام ، ومستقره فى دمشق .

ولكن هذا الجانب الصوفى من شخصيته ظل غالباً عليها ، وظل هو مشهوراً به، مشهوداً له بجلالة القدر فيه. يرجع إليه العلماء والمريدون فيما يشكل عليهم من أمور التصوف ومسائله ، حين يجلسون إليه فى داره فى دمشق ، أو فى مصطافه بقرية دمر ، أو يوجهون إليه الأسئلة فيجيب عليها كتابة ، موفقاً بين الحقيقة والشريعة .

ومن ذلك ما أورده ابنه محمد من أجوبته على الأسئلة التى قدمها إليه الشيخ سليم العطار، وقد وصفه فى كتاب أحد هذه الأسئلة بأنه « فى هذا العصر الإمام المقدم فى العلوم ، سيما ما أفاض الله عليه من علوم القوم ، وما ذاقه من مشربهم»[2] .

وبذلك نرى أن صوفية الأمير عبد القادر أخذت صورة أخرى غير تلك

---

(١) تحفة الزائر ٢ : ١٣٧ — ١٤١ ، الديوان ص
(٢) تحفة الزائر ٢ ؛ ٢٢٤ — ٢٣٤ .

الصورة الشعرية التي رأيناها ، فهي هنا صورة علمية تعتمد على الدرس والتذوق معا ، وتتخذ الحديث والكتابة أداة لها .

وأكبر الظن أنها اتخذت في هذا الوقت أيضاً صورة التأليف ، فاتجه الأمير عبد القادر إلى استخدام مقدرته التأليفية التي رأيناها قبل في مجال التصوف ، فوضع فيه كتابه الذي سماه « المواقف » ، والذي يصفه ابنه محمد بأنه « لعقد تآليفه واسطة النظام ، ولمطلع مجدوبيت القصيد وحسن الختام »[(١)] .

وقد أورد في حديثه عنه وتعريفه به قطعة منه ، تتضمن خطته ، وشبه مقامة بين فيهما حقيقة المدركات الصوفية التي تدرك بالذوق لا بالعقل ، وبالفيض لا بالنقل ، وما قد يقع بسبب ذلك من إنكار لها وخلاف عليها . فهو يقول في الخطبة :

« هذه نفثات روحيه ، والقاءات سبوحية ، بعلوم وهبية ، وأسرار غيبية من وراء طور العقول ، وظواهر النقول ، خارجة عن أنواع الاكتساب ، والنظر في كتاب ، قيدتها لإخواننا الذين يؤمنون بآياتنا . إذا لم يصلوا إلى اقتطاف أثمارها ، تركوها في زوايا مكانها ، إلى أن يبلغوا أشدهم ويستخرجوا كنزهم . وما قيدتها لمن يقول : هذا إفك قديم وأساطير الأولين ، ويحجر على الله تعالى ويقول : أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ، من علماء الرسم ، القانعين من العلم بالاسم . فإنا نتركهم وما قسم الله تعالى لهم ، فإذا أظهروا لنا ملاماً وخصاماً ، تلونا : « وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً » ، ونعيرهم أذنا صماء وعيناً عمياء ، ونقول لهم: «آمنوا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد،ونحن له مسلمون»، ولا نجادلهم، بل نرحمهم ونستغفرلهم، ونقيم لهم العذر من أنفسنا في إنكارهم علينا ، إذا جئناهم بأمر مخالف لما تلقوه من مشايخهم

---

(١) توجد من كتاب المواقف نسخة مخطوطة في دار الكتب برقم ٢١٥١ تصوف .

المتقدمين ، وما سمعوه من آبائهم الأولين ، فالأمر عظيم ، والخطب جسيم ، والعقل عقال ، والتقليد وبال . فلا عاصم إلا من رحم ربى . وطريقة توحيدنا ما هى طريقة للتكلم ، ولا الحكيم للعلم . ولكن طريق توحيد الكتب المنزلة وسنة الرسل المرسلة . وهى التى كانت عليها بواطن الخلفاء الراشدين ، والصحابة والتابعين ، والسادات العارفين . وإن لم يصدق الجمهور والعموم ، فعند الله تجتمع الخصوم » .

ثم يلى ذلك ماسماه « شبه المقامة » ، وكأنه جزء من الخطبة ، يوضح فيه ما ذكره فيها ، فى صورة قصصية ، وأسلوب رمزى . وقد تمثل ندوة اجتمع بها أصحابه ، يتبادلون الغرائب ويتساجلون الطرائف ، ويتناوبون الحديث ، فأجرى عن لسان كبيرهم الحديث عن غريبة الغرائب ، (وهو يعنى الحقيقة الإلهية) بما أثار عجبهم وإعجابهم، فهى« معشوقة غير مرموقة ،الأهوية اليها جانحة والقلوب بحبها طافحة ، والأبصار إلى رؤيتها طامحة ، يطير الناس إليها كل مطار ، ويرتكبون الأخطار . . . ولا يصل إليها إلا الواحد بعد الواحد ، فى الزمان المتباعد ، فإذا قدر لأحدهم مشارفة حماها ، ومقاربة مرماها ، ألقت عليه إكسيرا لا له مادة ولا مدة ، ولا عين معتدة ، فيحصل انقلاب عينه ، وجميع الأعيان فى عينه ، إلى عين هذه المعشوقة ، التى هى غير مرموقة ، المعلومة المجهولة ، المغمودة المسلولة ، الباطنة الظاهرة ، المستورة الساترة » ، إلى آخر هذه الصفات التى ينتهى فيها إلى التعبير عن وحدة الوجود ، إذ يقول على لسان هذا العريف : « وبعد التعب والعنا ، وجدت هذه المعشوقة أنا ، وتبين لى أننى الطالب والمطلوب والعاشق والمعشوق ، فما كان هجرى للذاتى ، إلا فى طلب ذاتى ، ولا كانت رحلتى إلا لتحلق ، ولا وصولى إلا إلىّ ، ولا تفتيشى إلا علىّ . . . » . فإذا انتهى من هذا الحديث المثير ،على لسان ذلك الكبير ، انتدب هو للبحث عنها ومحاولة بلوغها ،ومعاناة الطريق إليها ، وهى « طريق طامسة ،

أعلامها دراسة ، بحرها تيار ، وهواؤها نار ، وأرضها مفاوز وقفار ، أسدها كواسر ، وأغوالها عن أنيابها حواسر » ، وقد مر فى طريقه بدليل خريت فسأله عن « جهتها أى الجهات ، فقال : هيهات هيهات ، لا يستفهم عنها بمتى ولا أين ، ولا يرشد إليها أثر ولا عين » ، وبطوائف من الناس : « بين سادم باهت ، لا هو بالحاصل ولا بالفائت ، وبين حائر واقف ، التبست عليه المواقف ، وبين غريق فى لجج تلك البحار ، وتائه فى المفاوز والقفار ، وبين من نفبت راحلته ، وآخر دبرت زاملته ، وبين من يدب دبيب النمل ، حافياً بلا نعل » . وما زال فى طريقه حتى بلغ الغاية ، وظهرت له الأعلام التى ظهرت لمن قبله من الوافدين الأعلام ، ونادى المنادى وحدا الحادى :

أبشر بوصل فهاتيك العلامات كم طالبين ودون الوصل قد ماتوا

فإذا رجع إلى أصحابه وسألوه لم يكن إلا المثل يضربه لهم بأن عرفان هذه الحقيقة إنما يكون عن طريق تذوقها والإحساس بها ، أما الصفة فلا تبلغ من ذلك شيئاً .

فهذه صورة مقتضبة من هذه المقامة تؤدى الينا شيئاً من موضوعها ومنهجها وأسلوبها؛ وكما ترسم لنا شيئاً من ملامح عبد القادر الصوفية ، تبين لنا صورة من مقدرته الفنية ، وان الجانب الأدبى من شخصيته وجد فى النزعة الصوفية مادة طيعة له ، وسواء فى ذلك ما اتخذ الشعر أم ما اصطنع النثر الفنى .

(هـ)

هذه هى الشخصية التى أردنا أن نتخذ منها نموذجاً للثقافة السائدة فى الجزائر ، فى أوائل القرن التاسع عشر ، أو فى النصف الأول منه ، وفيها نستطيع أن نتمثل بعض ألوان النشاط الادبى فى هذه المرحلة .

على أن هذا النشاط كان يتمثل — إلى جانب ما ذكرنا — فى ألوان أخرى صدرت عن هذه الشخصية ، بطبيعة الدور الذى كانت تقوم به فى الحياة الجزائرية ، والمكان الذى كانت تحتله منها . فمنذ تألفت الحكومة الجزائرية التى كان الأمير عبد القادر على رأسها ، كانت تصدر عنها ، فى الأحداث والمناسبات المختلفة ، طائفة من الكتابات ، بعضها بقلمه ، وبعضها بأقلام كتابه ، والبعض الثالث بأقلام نوابه .

أما كتابه فقد ذكرهم ابنه محمد فى كلامه عن التنظيمات التى قام بها الأمير بعد البيعة له ، إذ قال إنه « استكتب ابن عمه السيد أحمد بن على أبى طالب ، والسيد الحاج المصطفى بن التهامى ، والسيد الحاج محمد الخروبى » ، كما ذكر فى موضع آخر السيد قدور بن محمد بن رويله على أنه كاتبه ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك . فلنا أن نعتبر هؤلاء الأربعة — وأكبر الظن أنه كان إلى جانبهم غيرهم ممن لم نقف على أسمائهم — أصحاب ديوان الرسائل الذين كانوا يكتبون أكثر ما كان يصدر عن دائرة الأمير ، غير موقع بتوقيعه خاصة .

وقد احتفظ كتاب « تحفة الزائر » بمجموعة غير قليلة من هذه الكتابات التى نستطيع أن نتمثل فيها — إلى جانب دلالتها على الأحداث والوقائع التى اقتضتها — هذا اللون من النشاط ، ونعرف فيها الأسلوب الغالب على هذا الفن من فنون الكتابة ، إلى جانب الأساليب الأخرى ، ومن ذلك إعلان البيعة الذى وجه إلى سائر القبائل العربية والبربرية ، والذى ختم بهذه العبارة : « حرر عن أمر ناصر الدين عبد القادر بن محيي الدين ، من معسكر ، فى الثالث من رجب سنة ثمان وأربعين ومائتين وألف ، وفى السابع والعشرين من نوفمبر سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة وألف ميلادية » .

وها هو ذا نص هذا الإعلان الذى يبدو أنه أول ما صدر عن دائرة الأمير، بل لعله صدر قبل أن تتكون هيئة ديوان الرسائل على الصورة التى أوردناها، فهى إنما شكلت بعد البيعة الثانية العامة. وأكبر الظن أنه مكتوب بقلمه، وأن ذيل بأنه حرر بأمره:

« الحمد لله. إلى قبيلة كذا، خصوصا أشرافها وعلماءها وأعيانها. وفقكم الله وسدد أموركم. وبعد، فإن أهل معسكر وغريس الشرقى والغربى ومن جاورهم وا تحدبهم قد أجمعوا على مبايعتى، وبايعونى على أن أكون أميراً عليهم، وعاهدونى على السمع والطاعة، فى اليسر والعسر، وعلى بذل أنفسهم وأولادهم وأموالهم فى إعلاء كلمة الله. وقد قبلت بيعتهم وطاعتهم، كما أننى قبلت هذا المنصب مع عدم ميلى إليه، مؤملا أن يكون واسطة لجمع كلمة المسلمين، ورفع النزاع والخصام من بينهم، وتأمين السبل، ومنع الأعمال المنافية للشريعة المطهرة، وحماية البلاد من العدو، واجراء الحق والعدل نحو القوى والضعيف. فلذلك ندعوكم لتتحدوا وتتفقوا جميعا، واعلموا أن غايتى القصوى اتحاد الملة المحمدية والقيام بالشعائر الأحمدية، وعلى الله الاتكال فى ذلك كله، فاحضروا لدينا لتظهروا خضوعكم، وتؤدوا بيعتكم. وفقكم الله وارشدكم »[1].

وهذه الوثيقة الأولى من وثائق الدولة الجزائرية الجديدة تمثل لنا أسلوبا بسيطاً سهلا مرسلا، لا صناعة فيه ولا تكلف ولا تزيد، سليم البناء واضح الصياغة، لا يشوبه شىء مما شاع فى الشرق فى هذه الفترة من اضطراب البناء وركاكة العبارة، وهجنة اللفظ، وتعقد المعنى.

---

(١) تحفة الزائر ١ : ١٠١

وهناك أسلوب آخر تمثله لنا الوثيقة الثانية ، وهى صك البيعة الثانية العامة الذى حرره وقرأه «العلامة الحجة الفهامة السيد محمود بن حوا الجاهرى[١] » ، إذ يعرض لنا أسلوباً مختلفاً كل الاختلاف : أسلوب الصناعة المتكلفة ، والزينة المجتلبة ، وهو الأسلوب الذى شاع بين العلماء والمتأدبين فى العصور المتأخرة، والذى كان يعد من مظاهر الامتياز العلمى والتفوق الأدبى .

وإذا كان هذا الأسلوب يرجع بأصوله الأولى إلى القرن الرابع الهجرى ، فإنه كان ــ إذ ذاك ــ يعتمد على حس أدبى يستر ما فيه من تكلف حتى لا يكاد يبدو منه شىء ، وعلى ذوق فنى يلابس الصناعة ويداخلها ويوجهها ، ثم مازال يسف ويسف بضعف الحس الأدبى والذوق الفنى ، حتى أصبح صناعة محضة ، فالألفاظ تجتلب اجتلابا لتحقيق صورة السجع أو الطباق ، والجمل تقسم تقسيما وتوزن أجزاؤها وزنا ، والقطعة كلها تخضع لنظم دقيقة وقوانين صارمة. وبقدر معرفة هذه القوانين والإحاطة بها والقدرة على تطبيقها يكون امتياز العلماء وتفوق المتأدبين .

وهذا العقد يبدأ بالبسملة ، والصلاة على رسول الله ، صلى الله عليه وسلم والتحميد الذى لا بد أن يضمن ما سماه البديعيون « براعة الاستهلال » ، بمعنى الإيماء إلى ما بنى عليه الكلام ، وهو هنا البيعة بالإمارة :

« حمداً لمن فضل أمة محمد عليه السلام ، وخصها بمزايا لم يعطها أحدا من الأنام، وجعلها خير أمة أخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكرات والأرجاس ، هداهم الله إلى مهيع الرشاد ، وطهرهم من عبادة الأوثان والأنداد والأضداد .. وأوجب عليهم نصب إمام عدل ، وفرض عليهم اتباعه فى القول

(١) هكذا جاء الاسم فى التقدمة لهذا الصك، وهو ـ كما جاء فى خاتمته ـ : « محمد الشهير بابن حوا » ، ١ : ١٠٣ .

والفعل ، ليكف الظالم وينصر المظلوم ، ويجمع شملهم بالخصوص والعموم ، ويكافح بهم عدو الدين ، لتكون العليا هي كلمة المسلمين » .

وهكذا حتى يفرغ من هذه المقدمة ، ليأخذ في الكلام عن أسباب البيعة من انقراض الحكومة الجزائرية ، واستيلاء العدو على مدينتي الجزائر ووهران واضطراب أمر الناس ، « لا ناهي عن منكر ، ولا من يعظ ويزجر » ، حتى « قام من وفقهم الله للهداية ، وظهرت عليهم العناية ، من رؤساء القبائل وكبرائها ، وصناديدها وزعمائها ، فتفاوضوا في نصب إمام يبايعونه على الكتاب والسنة . . . وجالوا في ميدان أفكارهم فيمن هو لذلك أهل ، من أهل الكمال والفضل ، فلم يجدوا لذلك المنصب الجليل إلا ذا النسب الطاهر ، والكمال الباهر ، رأس الملة والدين ، قامع أعداء الله الكافرين ، أبا المكارم السيد عبد القادر بن مولانا السيد محيي الدين ، أيد الله به الإسلام والمسلمين وأحيا به ما اندرس من معالم هذا الدين » .

وعلى هذا النمط يمضي في الكلام عن البيعة ، وشروطها ، ومن أدوها إلى أن يختم بهذه العبارة : « وقعت هذه البيعة العامة في ثلاثة عشر رمضان سنة ثمان وأربعين ومائتين وألف ، وفي الرابع من فبراير سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة . كتبها خادم الشريعة السمحاء محمد الشهير بابن حوا » .

فها نحن أولاء من هاتين الوثيقتين إزاء أسلوبين كانا يتنازعان التعبير الأدبي في الجزائر ، في هذه المرحلة ، كما أنهما يمثلان أحد وجوه النشاط الأدبي فيها إذ ذاك . وهو النشاط الذي يصدر عن أحداثها ويعبر عنها ، وأكبر الظن — حسبما تدلنا عليه البقية الباقية بين أيدينا من آثارها — ان هذه الكتابات

المتصلة بأحداث العصر والصادرة عنها كانت تمثل النشاط الغالب على الحياة الأدبية فى هذه المرحلة ، وإن كان ذلك لا ينبغى أن يصرفنا عن ملاحظة الآثار الأخرى ، والتعرف إلى من يتاح لنا التعرف اليهم من أهل الأدب ، كالسيد على أبى طالب ، والسيد الطيب بن المختار ، والسيد قدور بن رويلة ، والشيخ محمد الشاذلى القسنطينى .

٦

أما السيد على أبو طالب ، فهو على بن مصطفى بن المختار ، عم الأمـــير عبد القادر وصهره وصديقه . نراه أول ما نراه ـ فى حدود مصدرنا الوحيد ـ فى مجلس البيعة الأولى التى انعقدت لابن أخيه ، فى ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٣٢ ، ونقرأ له ـ أول ما نقرأ ـ شهادته التى كتبها تعقيباً على صك هذه البيعـــة ، فنحس فيه رجلا يكبر ابن أخيه ويفخر به ، ويعقد الأمل فى صلاح حال الجزائر عليه ، كما نعرف فيه كاتبا طلق العبارة سمح القول (١)

ثم نراه بعد ذلك مع الأمير فى واقعة المقطع سنة ١٨٣٦ ، وكانت إحدى الوقائع التى سجل فيها الجيش الجزائرى على الجيش الفرنسى نصراً مؤزراً . وقد نشبت هذه الموقعة على أثر هدنة انعقدت بين الفريقين ، لم يرعها الفرنسيون على عادتهم ، فنقضوها ، وظنوا أنهم بذلك يستطيعون توسيع حدودهم ، ومدها خارج وهران . ولـكن الأمير عبد القادر لم يلبث أن بادرهم وأوقع بهم ، وردهم على أعقابهم ، بعد خسائر فادحة فى الأنفس والعتاد أصيبوا بها

وكان لهذه الموقعة صدى كبير بين الجزائريين والفرنسيين جميعاً

وكان من أصدائها قصيدة فاضت بها شاعرية على أبى طالب ، وقد كان ممن شارك فى الموقعة وأبلى فيها . ومن هذه القصيدة بقيت لنا بقية أوردها حفيده محمد بن عبد القادر . ومن هذه البقية قوله يهنىء الأمير بما أتيح له من النصر فى هذه الموقعة :

---

(١) تحفة الزائر ١ : ٩٩ .

هنيئاً لك البشرى ، نصرت على العدا ... ودمرت جيش الكفر بالقتل والخسف
وحزت مقاما دونه كل باسل ... يرى الحرب ميدان الخلاعة والقصف
بجيش عظيم قد تفرد فى الوغى ... له سطوة عزت وجلت عن الوصف
فسعدى بعز مذ حللت بشطنا ... تطوف بكأس الراح مخضوبة الكف
تعاطيك طورا من لهيب ومن لظى ... وآونة تأتيك بالقرقف الصرف
ولما تولت خيلنا ورجالنا ... مددنا لهم أيدى النزال إلى السيف
بكل جواد يسبق البرق عدوه ... وآخر يطوى الأرض كالريح والطيف
نهار بدا كالليل أظلم حالكا ... أصبنا لهم ألفى قتيل مع النصف
قلبنا لهم ظهر المجن عشية ... فمالوا إلى حب الحياة عن الحتف

إلى آخر الأبيات التى بين أيدينا والتى يبدو فيها على أبو طالب شاعراً فى حدود المعنى السائد إذ ذاك لكلمة « شاعر » ، إذ يحسن صوغ القوافى وتنسيق الكلام وسبك الصور[1]

ثم نراه بعد ذلك بنحو عامين خطيباً فى مجلس من العلماء والأعيان ، دعاهم الأمير للمشاورة والبحث فى شأن المعاهدة التى تدور المفاوضات فيها بينه وبين حاكم وهران ، وفى شأن الظروف المختلفة التى تدعو إليها ، والاعتبارات التى تدفع عنها ، فقد كان الفرنسيون — من جانبهم — يريدون أن يطمئنوا إلى ما بأيديهم من بلاد الساحل ، وكان هو من جانبه يريد أن يفرغ لمواجهة الصعوبات التى تعترضه ، والشغب الذى تثيره بعض العناصر ، ويتخذ منه العدو مادة له ؛ ويود بذلك أن يجمع قوته ويوفر عدته ، ويجم نشاطه ، ليواجه العدو بعد ذلك . ولكن كانت هناك اعتبارات أخرى يثيرها الشعور الدينى

---

(١) تحفة الزائر ١ : ١٥٦ ، وفى الصفحه التالية ابيات من مقصورة قيلت فى هذه الموقعة قال إنها لبعض الأدباء ، أما حديث الموقعة ووصفها فيقع فى ١ : ١٥١ — ١٥٦ .

والكرامة القومية ، وتجارب الجزائريين مع الفرنسيين من قبل .

كان ذلك هو الموقف الذى اجتمع مجلس العلماء والأعيان لمعالجته والنظر فى اعتباراته . وقد اختلفت الآراء تبعاً لاختلاف وجهات النظر ، بين الجنوح إلى إبرام المعاهدة ، والرغبة فى المضى فى الحرب . وفى ذلك المجلس وقف السيد على أبو طالب يلقى خطبة كان أعدها من قبل ، يؤيد فيها وجهة نظر ابن أخيه الأمير عبد القادر فى إمضاء المعاهدة ، بالشروط التى يرى ضرورة النص عليها. وقد بدأ الحديث فى هذه الخطبة ، بعد حمد الله والصلاة على رسوله وآله ، بالكلام عن الغزو الفرنسى ، مشيراً إلى ما يرى من بعض أسبابه ، وما ترتب عليه من آثار بالغة الخطر ، فقال :

« وقد علمتم أيها السادة أنه لما تكاثرت المظالم ، وتواطأ العمال ومن وافقهم على ارتكاب المآثم ، انتقم الرب تعالى منهم ، وعمنا ذلك معهم . قال تعالى : واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، فسلط علينا عدو ديننا ، فتكالب على بلادنا واستولى على مراسينا ، واستبدل مساجدنا فيها بالكنائس ، وأخلاها من المدرس والدارس ، فرج لذلك أهل قطرنا ، وضاقت بهم أرض مغربنا ، واستبدلوا القصور المشيدة بخيام الشعر ، ومضارب الوبر ، وتفرقوا أوزاعاً فى المواطن ، وتباينوا فى الموارد والمعاطن ، وتغيرت الأحوال واشتبه المكن بالمحال ، وتوالى الحل والارتحال ، وضعف الرجاء فى أن يؤوب المسافر ، ويعود الشارد والنافر ، إلى أن طالت القصة ، وعزمنا ندفع به هذه الغصة ، ومالت شمس الاتفاق إلى الأفول ، وتهيأ جند التناصر والتعاضد للرواح والقفول . . . »

وبعد أن تحدث عن ولاية الأمير عبد القادر وما أبلاه فى قتال العدو ، أخذ فى الكلام عن هذا العدو ، وما أتيح له من كثرة العدد ووفرة الذخيرة

من ناحية ، ومن تخاذل ملوك الإسلام الذين استمدام الجزائريون عليه ، من ناحية أخرى ، فقال :

« . . . ثم لا زال العدو يتكاثر ، ويجلب من بلاده العساكر والذخائر بالعدد الوافر ، حتى كاثره بجنوده ، وجاء بما ملأ جميع أغوار الوطن ونجوده ، فاستمر القتل فى المسلمين ، وتوالى عليهم التمحيص فى سبيل رب العالمين . وقد استدعى حضرة الأمير — كما لا يخفى — ملوك الإسلام فى أقاصى البلاد ، واستنصرهم للجهاد ، فأعاروه أذناً صماء ، ولم يسمعوا له نداء ، بل أجابه لسان الحال : لا حياة لمن تنادى ، ولا معين على من تعادى . فإذا تمادى الأمر — أيها السادة — على ما نحن عليه ، ولم يجنح الأمير إلى ما دعاه العدو إليه ، فلا جرم أننا نكون قد ألقينا بأيدينا إلى التهلكة ، وتسببنا فيما يضيق على كل منا مسلكه ، ونكون قد أعنا أهل الفساد على أنفسنا ، ومهدنا لهم السبيل إلى مايؤذينا ، فيتابع الدعار والغوغاء غاراتهم ، ويجر الحفاة صوارمهم ، وتمشى سماسرة الفتن بين رؤساء القبائل ، ويسعى المفسدون فيما يفسد عليكم أمركم فى العاجل والآجل . . . »(١)

وحسبنا ذلك من هذا الخطاب الذى كان له أثره ، فيما يحكى صاحب تحفة الزائر ، فى اتفاق كلمة أهل المجلس على إجراء الصلح ، والاستمرار فى المفاوضة التى أدت إلى إبرام معاهدة تافنا ، أول يونية سنة ١٨٣٨ .

وإنما يعنينا من هذا الخطاب — إلى جانب دلالته السياسية والاجتماعية — الصورة الأدبية التى أسبغت عليه ، والصياغة الفنية ، بمفهومها إذ ذاك ، متمثلة فى التزام السجع ، وهى صياغة لم تتحيف ما أراد الخطيب إبرازه والإقناع به ،

---

(١) تحفة الزائر ١ : ١٧٥ — ١٧٦ .

فلم تحل دون اقتناع الحاضرين بما يدعو إليه ، بل لعلها كانت من أسباب هذا الاقتناع ودواعيه .

وبعد . فقد كانت شخصية على أبى طالب من أكبر الشخصيات الأدبية الجزائرية فى هذه الفترة . على ما تدلنا عليه هذه الملامح التى رأيناها له ، وهى تعد من ملامح العصر الأدبية .

والشخصية الثانية من الشخصيات التى اتفقت لنا ، ونريد أن تتمثل فيها بعض صور النشاط الأدبى فى الجزائر ، فى هذه الفترة ، هى شخصية «الطيب بن المختار» ، وهو أيضاً من أسرة الأمير عبد القادر ، ويذكره محمد بن عبد القادر مسبوقاً بكلمة «ابن عمنا» كما يصفه بالناظم الناثر[1] .

والصورة التى يبدو بها فى أول لقاء لنا معه هى صورة شاب شديد الإعجاب بعمه الأمير ، وقد غلبه الشوق إليه بعد اعتقاله ، فيحاول أن يعبر عن إعجابه وأشواقه فى صورة شعرية ، فيبعث إليه بقصيدة ينوه فيها بمآثره ويصور أشواقه . ولكننا لا نكاد نأخذ فى الاستماع إليها حتى نحس بشىء غير قليل من فجاجة المعالجة الأولى للشعر ، وذلك إذ يقول :

بكم السماحة والمروءة ألبست ثوب البها يا بضعة المختار
وتشرفت وتنورت وتزخرفت أحوالكم يا نخبة الأخيار
وترونقت وتزينت بمحاسن وتملكت وتزودت بفخار
وتطهرت وتطيبت بل أشرقت وتلألأت كتلألؤ الأقمار

ويمضى فى هذا النمط ، إلى أن يقول :

جاهدتم فى الله حق جهاده حتى الأمان أضا كشمس نهار
دار السلامة والمبرة والبقا لكم ، وللأعداء دار بوار
مذ غبتم أحبابنا ونأيتم يا جيرتى والدمع كالأنهار

(١) تحفة الزائر ٢ : ١٤٧ .

واحسرتى وكآبتى وصبابتى وشـــكايتى للمالك القهـار
جودوا بوصلكم الجميل فإن لى فيه الحياة مدى الزمان الجارى(١)

على أنا لا نلبث بعد ذلك حتى نراه قد غادر الجزائر إلى فرنسا ، فى جماعة من أسرة الأمير عبد القادر ، وفدوا عليه من أمبواز ، ليكونوا فى صحبته ، بعد أن أطلق سراحه ، وأذن له أن يذهب إلى القسطنطينية ، عاصمة الخلافة الإسلامية ، ليقيم من بعد فى بروسة .

وعندما بلغت السفينة التى ركبها القوم من مرسيليا جزيرة صقلية أرست بها فنزلوها وجعلوا يطوفون فى أنحائها . وأثارت هـذه الزيارة فى نفوسهم الصورة الإسلامية لهذه الجزيرة ، والمحنة التى أصابتها بالعدوان الصليبى عليها فغير صبغتها ونكر صورتها . وهاج ذلك بطبيعة الحال مشاعرهم . وكان من ذلك ما انطلقت به شاعرية الطيب بن المختار من شعر أورد طرفاً منه ابن عمه محمد بن عبد القادر . وقدم له بقوله : « وقد وصفها يومئذ العلامة سيدى الطيب بن المختار ، وذكر ما لحق بها وبمن سكنها من المسلمين من أنواع النوائب ، وصنوف المصائب . ثم تخلص إلى مدح الأمير » .

ومما أورد من هذه القصيدة عن صقلية بين ماضيها وحاضرها قوله :

هذى صقلية لاحت معـــالمها تجرتيهــا ذيول الريط من أمم
دار أقر لهـــا بالفضل ذو نظر والفضل ماشهدت فيه ذوو الهمم
كانت منار هدى كانت محط ردى كانت سماء شموس الفضل والكرم
هــذى معازلهم تبكى مآثرهم بكاء طرف قريح بات لم ينم
هذى المساجد قد دكت قواعدهـا هذى للآذن بالناقوس فى سقم

---

(١) المرجع نفسه ٢ : ٨ .

هذى المحاريب قد عاد الصليب بها   هذى منابرها قفرى من الحكم
هذى الكراسى على علم ومعرفة   دموعها بين منهل ومنسجم
إذا رأت مسلماً قد زارها فرحت   واستبشرت ثم باست موضع القدم

ويمضى فى هذا النمط ، معبراً عن صورة المأساة فى نفسه ، فتعجزه الأداة عن تمام التعبير وصحته ، وربما كانت مشاعره قد عجزت عن تبين الصورة على وجهها وعن الانفعال بها ، إلى أن يتخلص إلى مدح الأمير عبد القادر ، على النحو الذى نعرفه فى كثير من الشعر المتأخر ، من تكلف التخلص ، فالجزيرة — كما تقتضى صناعة التخلص — قد فرحت وازدانت بالزهور الزاهية على أكمها العالية لحلول الأمير بها .

وكيف لا وحسام الدين حل بها   فخر الأكابر من عرب ومن عجم
صدر الأفاضل فى دنيا وآخرة   كهف الأئمة فى حرب وفى سلم(١)

وأول ما يحس به قارىء هذه القصيدة هو أن شاعرية الطيب بن المختار لم تستطع أن ترتفع إلى مستوى هذه المناسبة ، وتتخذ الحالة الشعرية الجديرة بها وإنما هو نوع من « النظم » قاصر الأداة ، كما نرى .

ونفتقد الطيب بن المختار بعد هذا اللقاء ، فلا نعلم من أمره شيئا ، ونحسب أنه عاد إلى الجزائر فيمن عاد إليها من حاشية الأمير ، حتى نلقاه بعد نحو اثنى عشر عاماً فى كتاب كتبه إلى الأمير عبد القادر(٢) ، وهو مقيم فى الشام ، جواباً على كتاب بعث به الأمير إليه ، يتحدث فيه عن رحلته الحجازية ، وما أتيح له فيها .

---

(١) تحفة الزائر ٢ : ٤٩ — ٥٠ .
(٢) الكتاب مؤرخ « فى ربيع الثانى سنة إحدى وثمانين ومائتين وألف » ويوافق ذلك بالتاريخ الميلادى شهر سبتمبر سنة أربع وستين وثمانمائة وألف .

ونعرفه فى هذا الكتاب كاتباً صناعاً ، كما نرى فيه عالماً واسع المعرفة كثير الاطلاع . وقد صاغه صياغة فنية ، التزم فيها السجع ، وأكثر فيها من التضمين والايماء ، على النحو الذى نعرفه فيما كان يتبادله الأدباء والعلماء من رسائل فى القرون الأخيرة يجعلونها مجلى علمهم ، وميدان براعتهم ، وهو يذكرنا – إلى حد غير قليل — بالرسائل التى دارت بين المقرى ومعاصريه وأصحابه فى الشام ، قبل ذلك بقرنين من الزمان .

ولا يسعنا إلا أن نحيل القارئ إلى ذلك الكتاب المطول الذى استغرق خمس صفحات من كتاب تحفة الزائر (٢ : ١٤٧ – ١٥٢) ، والذى تأنق فيه الطيب أيما تأنق ، ليرى كيف نضجت شخصيته الأدبية فى حدود التقاليد الفنية السائدة إذ ذاك ، وزايلتها تلك الفجاجة التى رأيناها قبل .

ونحسب أن الطيب بن المختار أقبل منذ رجع إلى الجزائر على كتب الأدب والعلم ، مثل كتب المقرى والقاضى عياض ، منصرفاً إليها مستغرقا فيها . وكأنما أراد أن يكون لنفسه منها عالما خاصا ، يعتزل فيه ذلك العالم المنكر الذى صارت إليه الجزائر ، وغلب اليأس من تغييره . (وأكبر الظن أن ذلك كان شأن كثير من شخصيات الجزائر العلمية فى ذلك الوقت ، مما أتاح للتيار العلمى أن يظل ساريا ، وإن يكن فى خفاء ، على النحو الذى نرجو أن نعرض له بعد) فكان من أثر ذلك هذا التطور البعيد المدى الذى نراه فى أسلوبه فى النثر والشعر جميعا ، وقد بقيت لنا بقية من شعره الذى كان يبعث به إلى الأمير عبد القادر فى هذه المرحلة تحمل هذه الدلالة ، إذ يقول :

أكل خـــليل لا يدوم له عهد   أم انفردت فى حل ما عقدت هند

أراها استحالت حالها وتنكرت   معارفها ، والطرف منى ممتد[1]

---

(١) ديوان الأمير عبد القادر الجزائرى ، ص ٨١ ط دار اليقظه العربية للتأليف والترجمة والنشر ، دمشق .

فإذا بلغنا الشخصية الثالثة من الشخصيات التى اخترناها لتمثيل النشاط الأدبى لهذه للرحلة ، وهى شخصية السيد قدور بن الرويلة ، وجدنا أنفسنا بازاء رجل عالم ، يقرن اسمه مرة بلقب « العلامة » ، ومرة أخرى بلقب « كاتب الأمير » .

وأول ما نلقاه يوم فتح تلمسان ، حين تهيأ الأمير للاحتفال بهذا اليوم ، فجعل يعالج الشعر ، لينشده فى هذا الحفل ، فلم يتهيأ له منه غير ثمانية أبيات ، ذكرناها فى موضعها ؛ ثم أخذته الشواغل فصرفته عن إتمام القصيدة ، فألقى بالأبيات الثمانية اليه ، وكان كاتبه ، ليجيزها ، ويبنى على ما ابتدأ منها ، ففعل. وقد رأينا أن صورة تلمسان ، كما تمثلتها شاعرية الأمير هى صورة فتاة جميلة طالما حاول الرجال الظفر بها ، فكانت تصد عنهم ، وتمنع جانبها دونهم ، اذ يقول بين ما يقول :

وكم رائم رام الجمال الذى نرى فأرداه منها لحظها ومداها
وآخر لم يعقد عليها بنمة وما مسها مسا أبان رضاها

وعلى هذا أخذ ابن الرويلة يبنى بقية القصيدة ، فقال :

ولم تسمح العذرا إليه بعطفة ولم يتمكن من جميل سناها
وشدت نطاق الصد صونا لحسنها فلم يتمتع من لذيذ لماها
وأبدت له مكراً وصدا وجفوة وسدت عليه ما نوى بنواها
وخابت ظنون المفسدين بسعيهم ولم تنل الأعدا هناك مناها
قد انفصمت من تلمسان حبالها وبانت وآلت لا يحل عراها
سوى صاحب الإقدام والرأى والوغى وذى الغيرة الحامى حماة حماها
ولما علمت الصدق منها ، وأنها أنالتنى الكرسى ، وحزت علاها
ولم أعلن فى القطر غيرى كافلا ولا عارفاً فى حقها وبهاها

فبادرت حزماً وانتصاراً بهمتى ... وأمهرتهـــا حباً شفاء دواها
فكنت لها بعلا وكانت خليلتى ... وعرسى وملـكى ناشراً للواها
ووشحتها ثوباً من العز رافلا ... فقامت بإعجاب تجـــر رداها
ونادت أعبد القادر المنقذ الذى ... أغثت أناساً من بحار هواها
لأنك أعطيت للفاتيح عنوة ... فزدنى أيا عز الجزائر جاها
ووهران والمرساة كلا بمن حوت ... غدت حائزات من رضاك سناها

ونحن من هذه الأبيات إزاء صورة من التكلف اللفظى والتلفيق المعنوى وإهدار القواعد اللغوية ، كأنما كان على ابن الرويلة أن يكمل القصيدة فى أية صورة وعلى أية وجه ، وأن يدرك بها الموعد المحدد لإلقائها ، فلم يرو فيهـا ، ولم يبال ما يداخلها من تهافت وخطأ .

وهذا النوع من الشعر إنما يعتمد على الصنعة وحدها ، والصنعة تحتاج إلى التروى والمراجعة وترديد النظر ، وهو ما لم يكن ليتأتى فى ظروف هذه القصيدة .

على أننا سنراه بعد ذلك — فى لقائنا الثانى معه ـ قائماً بحق الصناعة .

وكان ذلك اللقاء بعد لقائنا الأول بقليل ، فى مجلس الأمير عبد القادر ، فى مدينة المدية ، بعد عقده معاهدة تافنا ، وتفرغه لإصلاح الحالة الداخلية ، وذهابه إلى ولاية تيطرى فى شرقى الجزائر لتفقد أحوالها ، وإقرار الأمور بها ، وإخضاع بعض الثائرين فيها ، « وكان رضى الله عنه ، بعد فراغه من الاشتغال بالأمور المدنية ، يشتغل بالأمور الدينيه ، إما فى نفسه وإما للعموم ، فكان مدة وجوده بالمدية يدرس درساً عاماً فى التوحيد ، وكان يوم ختمه أم البراهين للسنوسى يوماً مشهوداً ، حضره العلماء من القطر الجزائرى ، وقدموا له المدائح» كما يقول ابنه محمد .

وفى هذا اليوم المشهود ، وفى ذلك المجلس الذى كان العلماء يتبارون فيه فى إنشاء قصائد مديحهم ، نرى السيد قدور بن رويلة ينشد قصيدته :

أغيوث السماء سحت بروض   أم نسيم الصبا زكت بربوع
أم شموس الضحى تجلت بسعد   أم بدا البدر فى سعود الطلوع
وزهور الأقاح بالروض تبدو   باسمات عن البريق اللموع
وخدود الورود تحسبها   وجنة عذراء ذات خدر منيع

وبعد طائفة من هذه الصور أو التشبيهات التى تمثل ألوانا من الجمال الطبيعى ، ينتقل إلى صورة الدرس ، فيقول :

... أم سحاب العلوم فى الدرس يهمى   بفهوم من الغمام الهموع
أم عقود من البراهين تبدو   بقياس يزهو بحسن صنيع
أم لآل فرائد ملحقات   بمعان من البيان البديع
قد أقرت لها أسود « غريس »   ولها أذعنت جميع الجموع

إلى آخر هذه القصيدة التى تمثل ذلك اللون من شعر العلماء الذى تستغرقه الصناعة(١) .

وتمضى بعد ذلك سنوات تقارب العشر ، تقلبت فيها على الجزائر أحداث جسام ، نقضت فيها المعاهدة ، وتوالت أعمال البطش والعنف الوحشى ، وكثرت فيها الاضطرابات ، وعانت جيوش الأمير أشد أنواع المحن ، وهى صامدة مصابرة ، وتساقط كثير من الجهات فى يد المستعمر ، واتجه كثير من الجزائريين إلى المشرق . وكان ابن الرويلة فى جملة الخارجين — بعد أن كان وقع فى أسر العدو ثم أطلق سراحه — فمضى إلى المدينة المنورة . وفيها تلقى

(١) تحفة الزائر ١ : ١٩١ .

كتاباً من الأمير عبد القادر ، يهنئه ببلوغها ، ويفضى إليه ببعض أخبار القتال ، وخبر الرصاصة التى أصابت طرف أذنه ، وضمن كتابه أبياتاً من الشعر ، فأجابه ابن الرويلة بأبيات على وزنها ورويها ، على عادة العلماء فى مساجلاتهم الشعرية .

وأخيراً نراه بين من وفدوا على الأمير فى بروسه ، يشاركه مجلسه ويقاسمه ذكريات الجهاد . وبقى معه حتى غادر بروسه مزمعاً الإقامة فى دمشق ، فمضى معه ، ولكن منيته أدركته يوم بلغوا بيروت فى الطريق إلى دمشق .

أما الشخصية الرابعة ، وهى شخصية الشيخ محمد الشاذلى القسنطينى ، فأحسب أنها لا تختلف كثيراً عن شخصيات بعض العلماء الذين يعالجون الأدب، وتقصر موهبتهم عن أن يبلغوا معه مبلغاً أبعد من رصف الكلمات رصفاً لا يقصد معه أكثر من سد الخلل أو إكمال النقص أو إقامة الوزن أو اجتلاب القافية .

ولكنه يختلف عن الشخصيات السابقة — إلى جانب تخلفه الفنى — بأنه لم يكن ممن اتصل بالأمير عبد القادر فى الجزائر ، وإنما كانت صلته به وهو فى المنفى بأمبواز ، حين بدا لولاة الأمر فى فرنسا أن يخففوا عليه من وقع الأسر ، ويحيطوه ببعض ما يمكن أن يزيل وحشته ، فرأوا أن يكتبوا إلى حكام الجزائر بأن يختاروا رجلا يصلح لمؤانسة الأمير ومجالسته ، فوقع عليه اختيارهم ، وحملوه إلى امبواز ، فانعقدت بينه وبين الأمير مودة ، تحدث الأمير عن بعض اسبابها ، فى ختام رسالة دون فيها شيئاً من المساجلات التى كانت تدور بينهما ، إذ يقول : « وانى اعترف انى ما أعطيت أخى المذكور حقه ، ولا وفيت له مستحقه . . . فإنه لازمنى أيام نفور الحميم والقريب ، وآنسنى حين لاأنيس من الجنس أو غريب ، وتجشم شقة دونها أكبر مشقة ،

في مكان لا يقتحمه الأسد المضور ، بل تنقطع دونه اجنحة النسور ، وكنا قبل وروده علينا نناغي الحمائم ، ونسامر الفرقدين والحائم ، وان كانت الحمائم إذا صدحت لاتفهمنا ، وتجيبنا بالشجي فتدنفنا »[١] .

وشخصية الشيخ الشاذلي الأدبية نراها في هذه الرسالة التي دونها الأمير عبد القادر ، وفي أبيات من الشعر عزاه بها في موت بعض سراريه ، وأوردها السيد محمد بن عبد القادر ، كما أورد بعدُ ترجمة حياته ، فقال :

« والشيخ الشاذلي المتقدم ذكره هو العالم الفاضل الشيخ محمد بن محمد ابن إبراهيم الصوى النسب ، كان أجداده يسكنون طولقة من أعمال الزاب في ولاية قسنطينة ، فارتحل جده إلى قسنطينة وسكنها — ولد سنة اثنتين وعشرين ومائتين[٢] ، واشتغل في تحصيل العلوم على مشايخ أفاضل أجلاء . وتوفي — رحمه الله — في سنة أربع وتسعين ومائتين[٣] ، ودفن في تربة أسلافه »

* * *

هذه صورة من الحياة الأدبية في الجزائر ، كما يمثلها ذلك الجيل الذي ولد في أوائل القرن التاسع عشر ، ونشأ في السنوات السابقة للغزو الفرنسي في نهاية الثلث الأول من ذلك القرن ، حتى إذا كان ذلك الغزو ، فقد واجهه وهو مكتمل النضج ، فغامر في أحداثه ، وشارك في الصراع الذي أثاره مستغرقاً فيه ، منفعلا به ، على النحو الذي رأينا صورة منه .

حتى إذا انتهى ذلك الصراع ، كان ذلك الجيل قد بلغ مبلغ الاكتهال ، وامتد وجوده إلى المرحلة التالية التي انتقل اليها تاريخ الجزائر ، يمثل جزءا من كيانها ، وان كانت — مع ذلك — مرحلة مميزة ، بعواملها وعناصرها وسماتها

(١) تحفة الزائر ٢ : ٢٤
(٢) نحو سنة ١٨٠٧ .
(٣) نحو سنة ١٨٧٧ م .

وما نشك فى أن الصورة التى قدمناها ، والتى حاولنا جهد الطاقة أن نتبين ملامحها ، ونرسم خطوطها الكبرى ، صورة منقوصة مبهمة . إذ ليس بين أيدينا من مصادر هذه المرحلة ومراجعها ما يتيح لنا أن نقدم الصورة الجديرة بها ، وبالمكان الذى تحتله فى التاريخ الجزائرى عامة ، وتاريخ الأدب الحديث فى الجزائر خاصة . وقد ضاعفت هذه الدراسة المقتضبة التى أتيحت لنا عنها ، احساسنا بخطورتها ، وضرورة التوفر عليها ، بالبحث عن مصادرها واستقصائها والاكباب على دراستها .

وبانتهاء هذه المرحلة دخل تاريخ الجزائر — كما قلنا — مرحلة أخرى ، أجملنا صفتها فى حديثنا عن مراحل التاريخ الأدبى للجزائر ، كما أجملنا صفة للرحلة التى تليها ، إجمالا نستأذن القارىء فى أن نكتفى به الآن ، فنعبر هاتين المرحلتين ، لنبلغ الفترة الثانية ، ونأخذ فى الحديث عن أكبر ظاهرة فيها ، وأهم تيار من تياراتها ، وأوثقها صلة بما نحن بصدده من درس الأدب العربى فى الجزائر . وذلك هو نشوء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، منذ كانت نبتة مدفونة فى الأرض ، إلى أن ظهرت فوق سطحها ، وجعلت عوامل النماء تدفعها وترتفع بها وتقوى عودها .

وإن فى حديثنا عن هذه الجمعية ، والأسباب التى اقتضتها وابتعثت فكرتها ما قد يكون فى الوقت نفسه تعريفا بشىء مما كان يسود هاتين المرحلتين ، ويداخل الحياة فيهما . ونرجو أن نعود بعد إليهما ، حين نستأنف هذه الدراسة ، إن شاء الله . وقد توفر لنا — فيما نرجو — من مادة الدرس ووسائله ، ما يلقى الضوء عليهما ، ويهديها سواء السبيل فى دروبهما ومساربهما .

---

(١) تحفة الزائر ٢ : ٢٥ — ٢٦ .

٧

أما الأسباب التى اقتضت قيام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، فترجع — فى جملتها — إلى السياسة التى رسمها الاستعمار الفرنسى فى الجزائر لإخضاعها بعد حرب الإبادة التى شنها ، وعلم ألا جدوى لها

وقد قامت هذه السياسة على إهدار الشخصية الجزائرية ، بمحق مقوماتها من دين ولغة وثقافة قومية

فأما الدين فكان أول هدف للمستعمر ، يتجه إلى حربه ومحاولة القضاء عليه ، بطبيعة الروح الصليبية التى صدر الغزو الفرنسى عنها ، كما يمكن أن نلمح ذلك فيما قاله شارل العاشر ، فى خطاب العرش ، فى الثانى من شهر مارس سنة ١٨٣٠ ، وقد اعتزمت فرنسا غزو الجزائر ، وجعلت تعد العدة له ، انتقاماً لقنصلها فيما تزعم ، واستجابة لتلك الروح فى حقيقة الأمر . فقد قال عن هذا الغزو : « ان العمل الذى سأقوم به لترضية شرف فرنسا سيكون ، بعناية العلى القدير ، لفائدة المسيحية جميعاً »

ومثل هذا فى الدلالة على هذه الروح ماقاله وزير حربية فرنسا ، إبان الغزو ، فى التقرير الذى رفعه إلى الملك بشأنه : « لقد أرادت العناية الإلهية أن تستثار جلالتكم استثاره شديدة فى شخص قنصلكم . بواسطة ألد أعداء المسيحية . ولعله لم يكن من باب الصدفة أن يدعى ابن القديس لويس لكى ينتقم للدين والإنسانيه ، ولإهانته الشخصية فى الوقت نفسه . ولعل الزمن يسعدنا بأن ننتهز هذه الفرصة لننشر المدنية بين السكان الأصليين وننصرهم[1] ».

ثم لا تلبث هذه الروح أن تبدو سافرة شديدة التوثب فى مسلك بعض

(١) انظر : تطور السياسة الفرنسية فى الجزائر للدكتور صلاح العقاد ، ص ٤ ، ٥ .

قادة الغزو ، كالقائد روفيجو ، الذى كان يمثل الوحشية المغرقة ، فيما صوره وحكى عنه مؤلفا كتاب « الجزائر الثائرة[1] » . وقد كان العبث بالدين الإسلامى هو المجال المفضل لديه ، كما يقول هذان المؤلفان : كوليت وفرانسيس جانسون ، إذ يرسمان صورة من أبشع صور هذا العبث الذى يعبر عن ضغن دينى متغلغل ، وروح صليبية فاجرة ، « فقد وقف هذا القائد الفاجر ونادى بين بنى قومه بأنه يلزمه أجمل مسجد فى المدينة ليجعل منه معبداً لإله للسيحيين وطلب من أعوانه إعداد ذلك فى أقصر وقت ممكن ، وأشار لهم إلى جامع كتشاوة ، لأنه كما قال — أجمل جوامع الجزائر طراً . وهو فى وسط المدينة ، وفى قلب الحى الأوربى ، فضلا عن أن أفنيته تؤدى إلى مدخل السراى .

وبالفعل تحدد ظهر يوم ١٨ من ديسمبر سنة ١٨٣٢ لإنجاز هذا العمل ، وتحقيق هذه الرغبة . ففى الميعاد المحدد تقدمت إحدى بطاريات الجيش واخذت أهبتها للعمل فى ميدان السودان ، وخرجت من بينها فرقة من سلاح المهندسين فهاجمت أبواب المسجد بالبلط والفؤوس ، وإذا بداخل المسجد أربعة آلاف مسلم اعتصموا كلهم خلف المتاريس ، فاندفعت نحوهم القوة العسكرية ، ودحرتهم بالسناكى ، فخروا صرعى وجرحى تحت أرجل الجنود ، واستمرت العملية طوال الليل ، حتى إذا كان الصباح كانت النظم قد تمت ، والقرارات قد صدرت ، وصار الجامع « كاتدرائية الجزائر » . وما إن انتهى الجنود من هذا حتى داروا على أعقابهم صوب مسجد القصبة ، الغنى بذكريات الإسلام وأيامه المجيدة ، فدخله القواد والضباط والجنود ، وأقاموا فيه شعائرهم الدينية حتى إذا انتهى القداس شرع القساوسة فى تمجيد « إله الجيوش » ، وترتيل نشيد الغفران[2] » .

(١) L'Algerie hors la loi ، وقد ترجم إلى العربية سنة ١٩٥٧ . وانظر ص ٢١ من الترجمة العربية .

(٢) ص ٤٠ .

وكان للحملة — كما نرى — قساوستها الخارجون معها ، الملازمون لهـا رمزاً للروح الصليبية المسيطرة عليها ، والتى تعد هذه الحملة — فى حقيقة الأمر — تعبيراً عنها ، واستعدادا لأداء وظيفتهم فيها ، حين يتم الغزو ، وتسقط الجزائر ، فيأخذون فى الدعوة إلى المسيحية ، ليصرفوا المسلمين إليها ، ويحققوا لها السيادة. وقد قال قائلهم لقائد الغزو ، يذكر مأثرته على المسيحية بما أصاب من ذلك الغزو ، وما أتاح به للمسيحية من ظفر ، وما هيأ لها من مكانة فى هذا الأفق : « لقد فتحت للمسيحية باباً فى إفريقية » .

ولم يلبث التبشير بالمسيحية أن أخذ صورة منظمة ، واتخذ مكانه فى الميدان بتكوين جماعة الآباء البيض ، التى ألفها الكردينال لافيجرى Lavigérie تحاول أن تفتن المسلمين عن دينهم بشتى الوسائل ، وقد رأت فى النكبات التى حاقت بالشعب الجزائرى ثغرات تستطيع أن تنفذ منها الى تحقيق أغراضها . وكان من ذلك المجاعة التى ابتليت بها الجزائر ، سنة ١٨٦٨ ، والتى كانت من آثار السياسة الاستعمارية التى سلبت الأرض من أصحابها ، وأعطتها لجماعات المعمرين الذين اجتلبتهم من هنا وهنا ، فأساءوا استغلالها ، فوقعت البلاد تحت وطأة هذه المجاعة الشديدة التى قضت على ثلاثمائة ألف من الجزائريين ، فيما تقول الإحصاءات الرسمية . وعلى أضعاف هذا العدد فيما يقدر العارفون . فانتهز المبشرون هذه النكبة ، وجعلوا يجوسون خلال البلاد ، يلتقطون الأطفال الذين مات عنهم ذووهم ، لينشئوهم على المسيحية ، ويحققوا بذلك شيئاً من حلم الغزو الفرنسى ، الذى كان يرى ، كما جاء على لسان أحد القائمين عليه ، وهو سكرتير القائد بيجو ، أن آخر أيام الإسلام قد دنت ، وأن الوسيلة إلى أن يصبح العرب ملكا لفرنسا أن يتحولوا الى مسيحيين .

هذه هى الروح التى صدر عنها الغزو الفرنسى ، وسيطرت عليه .

ولا يقال إن فرنسا كانت قد تخلصت ، منذ الثورة الفرنسية من سلطان الكنيسة ، وتحررت — تبعاً لذلك — من الروح الصليبية . فإذا صح ذلك ، وأن فرنسا ظلت محتفظة بروح الثورة حتى ذلك الوقت ، فإن هذه الروح لم تعبر البحر ، وإنما ظل سلطانها مقصوراً على الفرنسيين فى أرضهم . أما خارجها ففرنسا حامية الكثلكة ، الداعية اليها ، ووارثة الروح الصليبية الممثلة لها .

ولم تلبث هذه الروح أن أخذت فى رسم الخطط التى تراها كفيلة بتحقيق أغراضها ، والتمكين للاستعمار ، وكان طبيعياً أن تتجه إلى المساجد التى تراها رمز الإسلام ومواطن قوته، فليوضع ما بقى منها تحت سلطان المستعمر ، وليستول على الأوقاف الإسلامية التى ينفق منها على الوظائف الدينية ، ليسيطر على نشاطها .

والمساجد فى الإسلام ليست دور عبادة فقط ، ولكنها ـ إلى جانب ذلك ـ مدارس يجلس فيها شيوخ المسلمين وحولهم تلاميذهم ، يقرأون عليهم ، ويأخذون عنهم فنون العلم المختلفة . وكانت ـ بطبيعة الحال ـ منتشرة فى مدن الجزائر وقراها . وبقدر انتشارها كان انتشار التعليم بين أهلها . « وكان بمدينة الجزائر وحدها قبل الاحتلال ١١٢ مسجداً — كما يقول الأستاذ أحمد توفيق المدنى ـ لم يبق منها إلا خمسة فقط ، أما الباقى فقد هدم تهديماً ، وحول اثنان من أكبرها إلى كنائس مسيحية[١] » .

وهذه البقية الباقية من المساجد فى مدينة الجزائر ، وفى سائر المدن والقرى، يجب فى سياسة الاستعمار أن تعطل من هذه الوظائف التى تؤديها ، بل يجب أن تتحول أوضاعها لتصبح ـ فوق ذلك ـ أداة من أدواته . وهو يملك ذلك بما وضع عليه يده من أوقاف هذه المساجد ، وسائر الأوقاف الإسلامية .

---

(١) هذه هى الجزائر ، ص ١٤٠ .

وهكذا خلت هذه المساجد من مجالس العلم التى كانت تنعقد فى جنباتها ، وكان لها أثرها فى التثقيف وفى إيقاظ العاطفة الدينية جميعاً ، فقد حظرها الاستعمار وطارد رجالها ، ثم أعاد تكوين هيئات المساجد على الأسس التى يراها ، إذ أصبح إليه تعيين أئمتها وقرائها ومؤذنيها وخدمها ، هو الذى يختارهم ، ويمنحهم أجورهم ، ويقبض بيده على أزمتهم .

قال الأستاذ أحمد توفيق المدنى فى كتابه عن الجزائر : « إن أول ضربة ضربها الاستعمار فى قطر الجزائر ، بعد تقويض أسس الدولة الجزائرية ، هى تلك الضربة التى ألحق بها الأوقاف الإسلامية بممتلكات الدولة ، سنة ١٨٣٠ . فكل المساجد الإسلامية والمؤسسات الإسلامية قد أصبحت من ممتلكات الدولة الفرنسية الخاصة ، تفعل بها ما تشاء ، فهدمت منها على هذه القاعدة ماهدمت . ثم هى تسمح للمسلمين بإقامة شعائر دينهم فى البقية الباقية منها . إنما لا يقع ذلك — وانتبهوا جيداً لهذا — إلا بواسطة موظفيها ورجالها ومن ينتدبهم الاستعمار للقيام بها .

فرجال الإفتاء وأئمة المساجد وسدنتها وقراء القرآن فيها ، كل أولئك من الموظفين الذين يتقاضون أجورهم من الخزينة الفرنسية ، ولا يتسلمون وظائفهم إلا متى قدموا للاستعمار ما يوجب رضاه ، ولا يبقون بها إلا ما داموا عاملين على مرضاته .

وتأكيداً لهذا الذى ذكره الأستاذ توفيق المدنى عن هيئات المساجد أورد فقرة من مقال كتبه أحد موظفى الإدارة الفرنسية بالجزائر ، ويدعى مسيو برك ، ونشر بعد موته . يقول :

« لقد وصل بنا امتهان واحتقار الدين الإسلامى إلى درجة أننا أصبحنا لا نسمح بتسمية المفتى أو الإمام إلا من بين الذين اجتازوا سائر درجات

التجسس . ولا يمكن لموظف دينى أن ينال أى رقى إلا إذا ما أظهر للإدارة الفرنسية إخلاصاً منقطع النظير[١] » .

ويعرض الأستاذ محمد البشير الإبراهيمى للمسيو برك صاحب هذا القول فيتحدث عنه فى مقال له بجريدة البصائر ، وينقل عنه فقرات أخرى تدل على مبلغ ما وصل إليه الموظفون الدينيون ، أو رجال الدين الرسميون ، من جهل بشؤون الدين ، إلى جانب ما رأينا من استخفاف بالدين ، وتسترهم باسمه فى ممارسة التجسس . يقول :

« والشيخ برك رجل إدارى ، شاب قرناه فى الوظائف الإدارية الخاصة بالمسلمين ، وكانت خاتمة تلك الوظائف إدارة الشئون الأهلية المعروفة فى تاريخ الاستعمار بأقطابها : . . . . وما منهم إلا له فيها مقام معلوم وتصرف مذموم ، وله من تمكين أوضاعها جزء مقسوم .

وهذه الإدارة هى مرجع رجال الدين فى التولية والعزل ، والتسيير والتوجيه ومنها يتنزل الرضا والسخط عليهم ، فالشيخ برك كان رئيس القوم وموجههم ومربيهم ومكمل ما كان ناقصاً فيهم من رسوم الخضوع والامتثال المطلق ، وقد لابسهم ولابسوه ، وعرف مداخلهم ومخارجهم ، وأكمل تربيتهم و « تسليكهم » ، فإذا شهد عليهم بشىء . فهى شهادة عيان ، وإذا وصفهم بنقيصة ، فهى من صنع يده فيهم » .

أما الفقرات التى نقلها فها هى ذى ، بترجمتها الحرفية ، كما وصفها .

« إن خطأنا الفاحش فى سياستنا الدينية منذ عشرين سنة هو أننا تساهلنا فى وجود موظفين دينيين فى المساجد ، يسيطر عليهم الجهل المركب ، والطمع ،

---

(١) المصدر نفسه ، ص ١٤٧ — ١٤٨ .

وعدم التهذيب ، ولا حد لرغباتهم فى أن يحمدوا بما لم يفعلوا .

فعدم الكفاءة ، والمبالغة فى الخضوع والانقياد ، هى الشهادات الوحيدة التى يمكن أن يعتزوا بها .

لقد رأينا مفتياً يستفتى الطيب العقبي فى موضوع صبيانى ، حكم فيه علماء الدين أكثر من مائة مرة ، لكن هذا المفتى كان جاسوساً مخبراً للبوليس ، كما سمعنا أحد الموظفين الدينيين فى مؤتمر عام يظهر فكراً من الأفكار البالية التى يمجها الذوق . حتى انفجر زملاؤه التونسيون والمغاربة ضحكا لم يستطيعوا له دفعاً . لكن هذا الموظف الدينى ممن لا يكادون يفارقون مكاتب البوليس ، ورأينا أحد الحزابين لم تمكنه معلوماته القرآنية التافهة من اتقاء أغلاط فى الحفظ والتجويد لا تصدر عن أقل للسلمين علماً ، لكن هذا الحزاب كان عوناً مأجوراً للانتخابات .

وهكذا ظهر فى الإسلام الجزائرى مراءون لا هم لهم سوى الامتثال إلى الظاهر من الأوامر ، وزنادقة (يدافعون عما احتكروه من امتيازات) ، ولا يقيمون لكبريات المشاكل وزناً ، فأغلبيتهم مارقون من الدين جهلا أو قلة إدراك .

وهكذا شاركنا فى انحطاط « هيئتنا الدينية الإسلامية » معجلين بإذلالها هذا هو الخطأ الكبير ، والذنب الذى لا يغتفر ، وإنا لنؤدى اليوم ثمنه غالياً[1] » .

هذه هى صورة رجال الدين الرسميين ، كما صنعتها السياسة الاستعمارية فى الجزائر .

---

(١) عيون البصائر ص ٢٠١ ، ٢٠٢ .

أما هذا الأسف الشديد الذى يعبر عنه المسيو برك بهذه العبارات ، فلم يكن ـ فيما نعتقد ـ غيرة على القيم العلمية أو الخلقية ، وإنما كان غيرة على السياسة الاستعمارية أن يصيبها شيء من الخلل . ذلك أن انحطاط هـذه الهيئة الدينية وهوانها كان جديراً أن يفقدها ما كان الاستعمار يرجوه منها من اطمئنان الناس إليها ووثوقهم بها وإجلالهم لها ، حتى تكون ستاراً أخاذاً خادعاً ، وأداة عاملة نفاذة .

ومهما يكن من أمر ، فقد كان من أثر استيلاء الاستعمار على المساجد والأوقاف الإسلامية وتسخيرها لغاياته ، وسيطرته على شئون المسلمين الدينية ، أن فقدت المساجد مكانتها فى تعليم الدين ، وفى إيقاظ العاطفة الدينية ، ووصل ما بين المسلمين وتراثهم الإسلامى ، وأن أصبح رجال الدين المرتبطون بتلك المساجد على تلك الصورة من الجهل بأوليات الدين ، وعلى ذلك النحو من الخروج على أبسط مبادىء الدين ، والاستهانة بالكرامة الدينية ، ومن الهوان والضعة ، بحيث أصبحوا عملاء للمستعمر المسيحى ، يخضعون له ويأتمرون بأمره ويسارعون إلى هواه ، حتى جاز له أن ينسبهم إليه ، فيسميهم « هيئتنا الدينية المسلمة[١] » . فلا جرم كان من أثر ذلك أن ينصرف الناس عنهم ، يلتمسون لعاطفتهم الدينية قوماً غيرهم . وذلك هو ما يأسى له المسيو برك ، لأنه أدخل الخلل على السياسة الاستعمارية .

على أنا نحسب أن انحطاط رجال الدين الرسميين ، واتخاذهم فى أذهان الناس هذه الصورة الزرية ، كان عاملا جديداً فى الاتجاه إلى الطرقيين ، أو أصحاب الطرق الصوفية ، أو من كانوا يسمون بالمرابطين ، وكان لهم فى تاريخ الدعوة الإسلامية والجهاد الإسلامى أثر كبير ومكان رفيع .

---

(١) Notre Clergé Musulman

ولـكن هذه الطائفة كانت قد ابتعدت بعداً كبيراً عن الأصول الأولى التى قامت عليها ، واتسعت الشقة بينها وبين الإسلام الحقيقى ، كما هو فى كتاب الله وسنة رسوله ومذاهب الأئمة السابقين وآثارهم ، فلم يعد الإسلام عندها غير مجموعة من الطقوس والشعوذات والخرافات . وكان من الطبيعى - نتيجة للجهالة التى أطبقت على المسلمين وغشت بصائرهم — أن أصبحوا هم الذين يمثلون الدين عند جمهرة كبيرة من المسلمين ، تتجه إليهم ، وتأخذ عنهم ما يرددونه من جهالات ، وما يلقنونهم من أحزاب وأوراد .

وأطلق الاستعمار العنان لهذه الطائفة ، لم يأخذ على يدها ، بل لعله جعل يشجعها ، ففى انصراف الناس إليها ، واستغراقهم فى خزعبلاتها وأضاليلها ، وإيمانهم بما تلقيه عليهم،من مثل قولهم « إن الدنيا قريب زوالهـا ، وإن هذا الزمان هو آخر الأزمان المنصوص عليها » . كما يحكى أحمد كاتب بن الغزالى عنهم[٢] ما هو جدير أن يترك المستعمر هادىء البال ، فهم بذلك محل رعايته . بل لعله كان يقرب إليه بعض أفرادها ، يتخذهم صنائع له .

وقد عرض الأستاذ علال الفاسى لموقف الاستعمار الفرنسى من هذه الطائفة بقوله :

« وقد جندت الدعاية الفرنسية فى الشمال الإفريقى ، وفى أفريقية الإسلامية جمعاء ، لفائدتها قسما كبيراً من مشايخ الطرق الصوفية الذين اعتادوا أن يعملوا لمصلحـة رجال الحـكم ، أو الذين خلقتهم الإدارة الفرنسية لتسخـيرهم فى أغراضها ، فاشتغل محمود التجانى فى الجزائر ، وعبد الحى الـكتانى فى المغرب ، وابن عزوز فى تونس،وغيرهم من أمثالهم ، دعاة متحمسين للسياسة الفرنسية . . . » .

---

(١) شعراء الجزائر فى العصر الحاضر ، لمحمد الهادى الزاهرى ، ١ : ١٦٠ .

ويشرح الأستاذ علال أسباب انزلاق هؤلاء من أصحاب هذه الطرق إلى ذلك بقوله :

« ومن المعلوم أن للطرق الصوفية أثراً كبيراً فى المغرب العربى ، منذ عهد أبى الحسن الشاذلى ، وأبى العباس السبتى ، والجزولى ، وزروق ، وغيرهم من رجال الزهد الذين طالما أفادوا الطائفة الإسلامية بما بذلوه لها من خدمات روحية واجتماعية . ولكن تدهور الأمن وتغلغل الفوضى الاجتماعية فى معظم القبائل ، قلب هذه الطرق إلى منظمات يشرف عليها فى الغالب انتفاعيون نصبوا أنفسهم ليكونوا الوساطة الفعالة بين الحكومات المحلية وبين الشعب فكانت السلطة لا تستطيع حفظ الأمن ولا جبى الضرائب ولا تعبئة الجيوش إلا عن طريق هؤلاء الذين يدعون أنهم يشعون عليها من بركة نفوذهم مايسهل عليها تحقيق أغراضها . وكانت هى الأخرى تعتبر هؤلاء القوم وترضيتهم أسهل السبل للحصول على ما تريده من تسخير للعامة واستغلال لها . فلما تبدلت الأحوال ، وضعفت السلطة الإسلامية ، وحلت محلها السلطة الأجنبية ، لم يجد هؤلاء المشايخ (إلا قليلا منهم آثروا الإخلاص على الخيانة) ، غضاضة فى أن يقدموا للأجنبى المحتل لبلادهم ، ما كانوا يقدمونه من خدمات للحاكم الوطنى مادام هذا الأجنبى يضمن لهم ما كان يمنحهم إياه الثانى من احترام وإنعام[1] » .

ويقول فى موضع آخر :

« وحاولت فرنسا ، بعد أن استقر الأمر لها ، أن تستغل لنفوذها مجموعة من الطرق الصوفية التى كانت موجودة فى الجزائر ، والتى كان عدد مريديها فى القرن الماضى يبلغ ١٦٨٨٧٤ (حسب جداول الإحصاء الموجودة فى آخر

(١) المغرب العربى منذ الحرب العالمية الأولى ، ص ١٣ .

كتاب « المرابطون والإخوان » الذى كتبه لويس ران ، وطبع سنة ١٨٨٤ ، وظهرت خيانة قسم كبير من شيوخهم ، كالتجانيين والوزانيين[1] » .

ومهما يكن من أمر فإن الإسلام فى الجزائر، بما دبر الاستعمار له، أخذ يعانى بين رجال الدين الرسميين وهؤلاء الطرقيين ، محنة كبيرة وجعل يتحول بتأثير الطرقيين الذين مكن لهم إلى طائفة رثة من الطقوس والخرافات . وقد تغلغل الإيمان بها حتى إلى بعض البيئات العلمية ، والأسر التى توارثت الحفاظ على العلم ، كأسرة الزاهرى ، من أسر الزاب الشرقى ، وكانت تضم كثيرا من العلماء ، ومنها محمد الهادى السنوسى الزاهرى ، أحد شعراء الجزائر فى الثلث الأول من القرن العشرين . وفى ترجمته التى كتبها لنفسه ما يدل على أنه كان قبل أن يتصل بالشيخ عبد الحميد بن باديس واقعاً تحت سلطان هؤلاء الطرقيين مؤمناً بما يبثونه من دجل وشعوذة ، وذلك إذ يقول :

« كنت قبل صحبتى لهذا الإمام ولوعاً بأباطيل الخرافيين من الطرقيين ، راسخ اليقين فى الإيمان بطواغيت الدجالين »

ومثل هذا نجده فيما يتحدث به عن نفسه محمد السعيد الزاهرى ، فى سياق كلامه عن جده الشيخ على بن ناجى الزاهرى إذ يقول :

« نظف عقلى من تلك الخرافات التى كنت أحسب أن المسلم لا يعتقد بإسلامه ما لم يعقد فؤاده على صحتها ، وأحسب أنها دين مالم يدن الله به فقد خسر الدنيا والآخرة وباء بغضب من الله » .

وبذلك كله تحقق للاستعمار — أو كاد — ما كان يرجوه ويخطط له من إهدار هذا العنصر من عناصر الشخصية الجزائرية ، وهو الدين . حتى يصبح

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٨٨ .

الإسلام مقطوع الصلة بأصوله التى صدر عنها ، والتى يشترك المسلمون جميعاً فيها ، ويكون بذلك إسلاماً جزائرياً Islam Algerien ، كما يحرص الاستعمار على تسميته .

وصلة الإسلام باللغة العربية صلة وثيقة، فالجناية عليه جناية عليها، وإهداره إهدار لها . وقد صار الإسلام ، فى جملة حالاته بالجزائر ، إلى تلك الصورة التى رأيناها ، بين رجال الدين الرسميين والطرقيين ، والتى انقطع بها ما بينه وبين أصوله الأولى من قرآن وحديث وأثر . فلم يعد القرآن إلا كلمات تتلى للتبرك أو ما إليه ، دون أن يفقه التالى لها معنى ، ووقر ذلك فى النفوس حتى استيأس قراء القرآن وحفاظه من محاولة تفهمه ، وبذلك انقطع الأثر الدينى فى اللغة العربية ، فضعفت وذوت ، وأصبحت غاية المكاتب القرآنية أن تلقن تلاميذها سوراً من القرآن ، دون أن يفهموا معناها ، أو يفقهوا مغزاها .

ومع ذلك فقد تعرضت هذه المكاتب، كما تعرضت المساجد، لنقمة المستعمر، فأغلق معظمها ، وسيطر على البقية الباقية منها ، وفرض عليها ألواناً من الرقابة، كما فرض على ما قد يستحدث منها ألواناً من القيود ، على النحو الذى نستطيع أن نرى صورة منه فى المقالات التى كتبها الأستاذ محمد البشير الإبراهيمى ، فى جريدة البصائر، عن « التعليم العربى »، حتى تظل فى ذلك الدرك الذى صارت إليه ، لا ترتفع عنه ، فتظل عديمة الأثر ، موسومة بالنقص ، فينصرف الناس عنها إلى المدارس التى أنشأها الاستعمار، إن اتسعت لهم، وهى لا تتسع إلا للقلة القليلة منهم ، ولا مكان للعربية فيها ، فينشأ تلاميذها ، وقد جهلوا لغتهم ، واستبدلوا بها اللغة الفرنسية .

وهذه المدارس التى أنشأها الاستعمار ليلتحق بها أبناء الجزائر لم ينشئها رغبة فى تعليمهم ورفع مستواهم ، بقدر ما كان إنشاؤها كيداً للعربية ، ووسيلة

من وسائل القضاء عليها . ومن ذلك أنه خص الجزائريين بمدارس على حدة ، غير المدارس التي جعلها لأبناء الفرنسيين ومن إليهم، وسماها المدارس الأهلية[1] ، وجعل لها درجتها الخاصة بها ، والموسومة باسمها ، لأنها مدارس على قدر ما يحتاجه المواطنون فى زعمه ، او ما يحتاجه هو منهم . وقد أورد الأستاذ الإبراهيمى من صفتها قوله إنها « تتعهد البرامج بالتنقيص من المفيد ، والزيادة من السفاسف ، وهى تكثر بزعمها من التعليم الصناعى الآلى ، لتبعد أبناءنا عن منشطات الفكر والروح » .

وهذا التعليم — فى جملته — تعليم ابتدائى ، يقف بالمتعلم عند حدود المعرفة الأولية للغة الفرنسية ، لتكوين الأدوات الضرورية للجهاز الحكومى . ومن ذلك كانت نسبة الذين استطاعوا أن يلتحقوا بالتعليم الجامعى نسبة ضئيلة .

على أن هؤلاء الذين تجاوزوا مرحلة التعليم الابتدائى ، وأتيح لهم أن يبلغوا من التعليم مرحلة عالية ، واستطاعوا أن يشاركوا فى بعض وجوه النشاط الأدبى والعلمى ، هم — فى بعض أمرهم — أمثلة ماثلة على اقتران السمو الفكرى والاجتماعى باللسان الفرنسى الذى كان سمتهم الظاهرة ، وعلامة امتيازهم ، والذى غمر لغتهم العربية ، فلم يعد لها وجود معه .

وتكوين جماعة من الأدباء خاصة ، فقدوا لسانهم العربى ، واستبدلوا به اللسان الفرنسى ، فهو أداتهم التى لا أداة لهم غيرها فى التعبير عن أنفسهم ، وفى صياغة أدبهم ، وفى التجاوب مع من حولهم ، وفى الإعجاب بهم ، هو أمر يخدم — بذاته — قضية الاستعمار ، ويحقق بعض ما يتوسل إليه من توثيق الصلة

---

(١) Ecôles Indigenes . ويقول الأستاذ الابراهيمى عن كلمة (انديجان) إنها « فى قاموس الاستعمار وفى السنة حماته الطغاة نبز وتحقير لهذا العنصر الشريف الذى أوقعته الأقدار فى قبضة الاستعمار الفرنسى » .

به . إذ لا بد لهذا الأديب الذى نشأ على الفرنسية ، وأنشأ بها نتاجـه الفنى ، فإذا هو إزاء فلذ منه فرنسية الطابع ، أن يمنحها حبه ، وأن يشيع هذا الحب بين نظرائه وقرائه من المتأدبين بالفرنسية . وبذلك تصبح الفرنسية صلة مثل صلة الرحم تستوجب الولاء . وإن يكن الأمر فى هذا يرجع — مع ذلك — إلى ضمور الإحساس بالقومية ، أو كمون الشعور بالذاتية ، فإذا أتيح لهذا الإحساس أن يخرج من حالة الـكمون هذه ، وينبعث فى أجواء الحياة الجزائرية ، متغلغلا فى كل نفس ، مسيطراً على كل ضمير ، فقد أصبح هـذا الولاء لعنة ، وأحس هؤلاء الأدباء بما يحس به الأب نحو أبنائه الذين جاءوا لغير رشدة ، فهم يذكرونه بخطيئته ، ويثيرون فيه إحساس الندم .

تلك كانت سياسة التعليم وغايته . فلم يكن إنشاء هذه المدارس من أجل انتشال الجزائريين من وهدة الجهالة والأمية ؛ بقدر ما كان نكاية فى العربية وكيداً لها بتنشئة الناشئة على اللسان الفرنسى ، ينسون به لسانهم العربى ، وقد ينسون به عروبتهم .

وبذلك تصبح الفرنسية لغة الطبقة المثقفة أو المتعلمة ، كما أنها لغة الدواوين ولغة الطبقة الحاكمة ، لا مكان للعربية معها فى مجال من هذه المجالات ، وإنما مكانها فى طبقات الشعب الدنيا ، وفى شؤون الحياة اليومية وتوافهها ، وهى بعد عربية مقطوعة الصلة بماضيها ، معزولة عن العربيـــة فى الأقاليم الأخرى غريبة عنها ، إذ هى عربية جزائرية ، كما زعموا عن الإسلام ، وقد انحطت إلى درك اللغات الدنيا ، التى هى لغات كلام فقط .

وهكذا يتضاءل شأن اللغة العربية ويهون شأنها ، ويسقط بذلك اعتبارها عنصراً من عناصر الشخصية الجزائرية يعتز الجزائرى به ويحرص عليه . فليست بذلك موضع اعتزاز ، بل سمة من سمات الضعة والهوان ، وعلامة على الانتماء إلى الطبقات

الـكادحة المغمورة ، التي لم يتح لها أن تتعلم فى المدارس الفرنسية . . .

وهكذا تم للاستعمار — أو كاد — ما أراد من إهدار هـذا العنصر من عناصر الشخصية الجزائرية .

. .

وتماماً على هذا أراد الاستعمار أن يهدر العنصر الثالث ، وهو الثقافة القومية التى تتمثل فى الأدب والتاريخ ، وفى الميراث الفكرى عامة .

أما الأدب العربى فهو مرتبط باللغة العربية ارتباطاً ذاتياً ، فإهدارها اهدار له . فلا يمكن لشعب نسى لغته أن يستبقى أدبه الذى تؤديه هذه اللغة ، بطبيعة الحال . وفى هذا الأدب تتمثل أمجـاده ، وتنعكس صور حياته الماضية ، فاتنة رائعة ، فإذا فقد لغته فقد حيل بينه وبين هذه الأمجاد ، وتصرم ما بينه وبين مآثر الأجداد . وأخذت ملامح شخصيته فى الانبهام والامحاء ، إذ كان هذا الأدب من أسباب بقائها حية ناضرة .

وأما التاريخ فقد كان من شأن هـــذه المدارس الفرنسية أن تحول بين تلاميذها الجزائريين وبين معرفة تاريخهم ، واستبقاء هذه الصلة التى تصلهم بأصولهم . فالتاريخ الذى يدرسونه ويكلفون معرفته ، منذ نشأتهم الأولى ، هو تاريخ فرنسا لا غير ، ففرنسا هى الوطن الأم ، وإذا كان للجزائر تاريخ فليس إلا التاريخ الأوربى؛ أما العرب فلا صلة للجزائريين بهم .

على هذا ينشأون ، وبمثله يستقبلهم الـكتاب الفرنسيون بما يكتبون ، على النحو الذى نستطيع أن نرى صورة منه فى كتاب الجنرال ادوار بريمون ، عضو أكاديمية العلوم الاستعمارية ، الذى سماه بربر وعرب[1] ، وجعل شعاره هذه الـكلمة : بلاد البربر بلاد أوربية[2]

(١) Genéral Brémond, de l'Académie des Sciences Coloniales, Berbéres et Arabes

(٢) La berbérie est un pays européen

«وهذه الكلمة هى الأصل الذى أدار الكتاب عليه ، والغرض الذى ذهب يعتسف كل شىء لإثباته : بلاد المغرب جزء من أوربا ، لا على المجاز ، كما ذهب إسماعيل فى كلمته المشهورة عن مصر ، بل على الحقيقة كما يريدها ، يفصل القول فى ذلك تفصيلا ، ويشققه تشقيقاً ، منذ أول خلق المغرب ، إلى المستقبل الموموق... مع أوربا نشأت بلاد المغرب ، وبناسها أهلت ، وبأسبابها اتصلت ، وإليها آخر الأمر تعود . . . فليس غير أوربا فى حياة المغرب ، فى تاريخه كله ، بل فيما قبل التاريخ أيضاً .

أما ما يقال عن مكان العرب منه ، أو أثرهم فيه ، فأوهام لا حقيقة لها ، وضلالات تشبث الغافلون بها . فالفتح الإسلامى للمغرب لم يقم بالعرب ، كما يزعم المؤرخون ، ويرتبون على ذلك عروبته ، وإنما كان قوامه عناصر إيرانية وطورانية وغير ذلك .

وكذلك شأن الغزو الهلالى الذى مضى القول فى الناس بأثره الكبير فى تعريب هذه البلاد ، فإنما ذلك — فيما يرى المؤلف — وهم كبير من أوهام المؤرخين فهؤلاء الهلاليون ، إن صح أنهم عرب ، ليسوا إلا عصابات قليلة ضئيلة الشأن ؛ ألجأتها المجاعة إلى الهجرة ، ومزقها بعد الشقة ، واجتاحتها البادية . وإنما كثرت بمن انضم إليها فى زحفها من جماعات البربر ، الراغبة فى النهب وفى إثارة الشغب ثم لم تلبث أن امتصتها الجماهير البربرية ، فما من أثر بعدها ، ولا شىء مما يزعم المؤرخون من خطرها .

ويقر للمؤلف — ولا ريب — عينا ويطيب نفساً أن استطاع بهذه الصورة أن يزيف التاريخ ، وأن يبقى شعب المغرب بعيداً عن كل أثر عربى جاءه — فيما يزعم ذلك التاريخ — من الفتح الإسلامى أو من الغزو الهلالى ، محتفظاً بسلالته الأوربية منذ أقام بهذه البلاد فى عصر ما قبل التاريخ ، تمدها بين حين وآخر

روافد أوربية ، من الرومان والوندال واليونان والنورمان والأسبان والفرنسيين.

ولكن إذا كان الأمر قد اتسق له من ناحية السلالة والعرق ، كما يخيل إليه ، أو كما يريد أن يخيل إلى قرائه الذين يكتب لهم ، فما عسى أن يصنع فى أمر واقع لا يملك له دفعاً ، وهو هذه اللغة التى لا حيلة له إنكارها ، ولا مناص من الإقرار بها .

ليس فى شىء من هذا ما يستطيع أن يغلب المؤلف على أمره . . . هذه اللغة التى تسمى باللغة العربية ليست من العرب بسبيل . لم يأخذها البربر عنهم، فالعرب شعب لم يصل فى مدارج الحضارة إلى ما وصل إليه البربر . فكيف يأخذ شعب متحضر لغة شعب لا حضارة له . ولم يحدث فى التاريخ أن مغلوباً اتخذ لغة غالبه ، إلا أن يكون الغالب أكثر حضارة وأرفع منه مكاناً .

أم قد اتخذوها إذن لأنها لغة الإسلام الذى دانوا به ، أو لغة القرآن كتابهم الدينى ؟ ذلك ما لا يملك المؤلف . . أن يأخذ به أو يستسلم له . فاللغة العربية — فيما يزعم — لغة دينية أو لغة طقوسية . وليس هناك لغة دينية استطاعت أن تفرض نفسها على الحياة .

فاللغة العربية فى شمال أفريقية لم يصدر بها أهل هذه البلاد عن العرب ، ولا هم يدينون بها للاسلام الذى جاء مع العرب . . . إنها كانت لغة لهم قبل العرب والإسلام ، أخذوها عن الفينيقيين . فالفينيقيون هم الذين ورثوهم هذه اللغة ، لا العرب ولا الإسلام »[١] .

هذه صورة من التاريخ الجزائرى، كما يعرضه الاستعمار . ولا نعنى أن هذه الصورة بعينها كانت ماثلة أمام الجزائريين فى فترة ما قبل تكوين جمعية العلماء المسلمين ، ولكنها تدلنا على الروح التى كان الاستعمار الفرنسى يتناول بها التاريخ الجزائرى، ويريد بها أن يكفر الجزائرى بعروبته وأمجاد هذه العروبة ،

(١) هذه الخلاصة لرأى المؤلف مأخوذة عن مقال لنا بعنوان : « محنة العروبة فى الشمال الإفريقى » (مجلة الرسالة : ١٩ مارس ١٩٦٤) .

ويقطع كل وشيجة تصله بها ، فيهدر بذلك هذا العنصر من عناصر شخصيته .

وهكذا نرى أن الاستعمار الفرنسي لم يترك وسيلة لإهدار مقومات الشخصية الجزائرية ، بين العامة والخاصة جميعاً ، إلا اتخذها وتشبث بها . وكانت التعاسة البالغة التي تعانيها جمهرة الشعب الجزائري ، والحياة المكدودة التي تستغرقها ، والزراية التي تتجرعها كل حين من المستعمر ، والجهالة المطبقة التي تسودها ، كل ذلك كان عوناً للاستعمار ، إذ كان من شأنه أن يضعف عندها الشعور بذاتيتها ، ويقمع الإحساس بقوميتها .

أما الخاصة الذين نشأوا نشأة فرنسية ، فقد انتهت السياسة الاستعمارية إلى الغاية التي كانت ترجوها عندهم ، من انعدام الشعور بالقومية الجزائرية. وكان أقصى ما يطمحون إليه أن يتحقق للجزائر الاندماج في فرنسا ، إذ ليس لها قومية خاصة تمت إليها ، ولا شخصية تتميز بها. وقد تكونت منهم في أعقاب الحرب الأولى جماعة تنادى بذلك وتدعو إليه في حماسة وإصرار .

وقد أشار الأستاذ علال الفاسي في كتابه: الحركات الاستقلالية في المغرب العربي ، والمغرب العربي منذ الحرب العالمية الأولى ، إلى هذه الحركة التي كان يتزعمها الدكتور بن جلول وعباس فرحات ، كما أشار إلى كتاب عباس فرحات «الشبيبة الجزائرية» الذي صدر سنة ١٩٣١ ، يحمل هذه الدعوة ويشرحها بأن القضاء على الاستعمار إنما يكون عن طريق الإلحاق، من المستعمرة إلى المقاطعة .

ويورد الدكتور صلاح العقاد في كتابه : «تطور السياسة الفرنسية في الجزائر» فقرات من إحدى المقالات التي كان ينشرها عباس فرحات ، منذ سنة ١٩٢٥، تعبيراً عن هذا الإتجاه وتأييداً له، في مجلة Le geune Algorien ، وها هي ذي واضحة الدلالة على ما أصابه الاستعمار من نجاح في إهدار القومية الجزائرية:

« نحن أصدقاء بن جلول السياسيين، كان يمكننا أن نكون من القوميين،

ولقد تحدثت فى هذه المسألة مع شخصيات عديدة،ورأيى فيها معروف. فالقومية هى تلك العاطفة التى تدفع بقوم إلى العيش داخـل حدودهم الإقليمية ، وهى العاطفة التى أوجدت مختلف الأمم. ولو أنى اكتشفت الأمة الجزائرية لـكنت أول القوميين ، ولما خجلت قط من ذلك. فالرجال الذين ماتوا من أجل مثلهم الوطنية مكرمون ومحترمون ، ولا تساوى حياتى أكثر من حياتهم . ومع ذلك ، فلن أموت من أجل وطن جزائرى ، لأن ذلك ليس له وجود ، ولم أكتشفه . لقد ساءلت التاريخ ، وساءلت الأحياء والأموات ، وزرت المقابر ، فلم يحدثنى أحد عنه . ولا يمكن البناء على الهواء . وقد استبعدنا تماماً جميع هذه الأوهام لنربط نهائياً مستقبلنا بما حققته فرنسا لهذا البلد .

وعلى كل ، فلا يوجد من يعتقد جدياً بهذه القومية الجزائرية . وكل ما يراد من وراء هذه العبارات هو تحريرنا السياسى والاقتصادى ، لأنه بدون تحرير السكان الأصليين ، لن تـكون هنالك جزائر باقية على مر الزمن ».

وإذا كان عباس فرحات قد تحول عن رأيه فيما بعد ، فنحن إنما نحاول التعرف إلى آثار السياسة الاستعمارية فى محاولة محق الشخصية الجزائرية، وتبين الحالات التى استدعت قيام جمعية العلماء للسلمين الجزائريين .

٨

ذلك هو وجه الجزائر الظاهر ، وهناك وجه آخر ، لا بد أن نتبين شيئاً من ملامحه .

فإذا كان الاستعمار الفرنسى قد استطاع إلى حد بعيد أن يهدر مقومات الشخصية الجزائرية ويطمس ملامحها ، حتى ليبدو سواد الشعب الجزائرى ، وكأنه جماعات من الهمل ، اجتثت من فوق الأرض ، فلا ماضى لها تعتز به ، ولا مستقبل تسعى إليه . وإنما هو حاضرها المادى الذى تعيش فيه وتعمل له ، ليس هناك قيم تحرص عليها ، ولامثل تنحو نحوها . وحتى صارت خاصته ، وإن أكبر ما تحرص عليه وتدعو إليه أن تندمج الجزائر فى الأمة الفرنسية ، ففيها تجد القومية التى تشعرها بكيانها ؛ فإن هذا الذى أصابه الاستعمار وخيل إليه أنه أصاب به الغاية التى قدرها ودبرها ، إنما يمثل الوجه الظاهر من وجوه الحياة الجزائرية ، وما كان ليستطيع أن يقضى قضاء تاماً على الروح الجزائرية الكامنة فذلك ما ليس فى طبيعة الأشياء ، كما لا يملك القضاء المطلق على الميراث الجزائرى العقلى ، فقد بقى هذا الميراث الذى يتألف من الدين وعلومه ، واللغة وآدابها ، والثقافة القومية بشعبها المختلفة ، سارياً حيث استطاع أن يجد له مسرباً ، بعيداً عن تعقب السلطان الاستعمارى ومطاردته .

وأكبر ما كانت تتمثل فيه هـذه المسارب هو بعض الأسر العلمية التى اتخذت منها الروح الجزائرية ملاذاً لها ، فكانت حريصة على تمثيل هذه الروح برعاية الناحية العلمية والقيام عليها . بل لعل ما حاق بالجزائر من استيلاء الاستعمار عليها ، وانهيار المقاومة ، وغلبة اليأس على النفوس ، كان مما ضاعف

من حرص هـــذه الأسر على طابعها الذى تميزت به ، والحفاظ على مواريثها العلمية .

وقد افترضنا ـ فى تفسير التطور البعيد المدى الذى لا حظناه فى شخصية الطيب بن المختار الأدبية ـ أنه ، بعد سقوط الدولة الجزائرية ، استغرق فى قراءة الآثار الأدبية ، ودرس فنون العلم المختلفة ، لا يصرفه شىء عن ذلك ، ملتمساً فيه نوعاً من الخلوة ، كتلك التى يلجأ إليها بعض المتصوفة ، هروباً من واقع الحياة ، أو تجنباً لمواجهة المنكر الذى تغص به ، ولا سبيل إلى تغييره ، كما افترضنا أن ذلك كان مسلك كثير من الشخصيات الأدبية والعلمية التى غلبها اليأس من مواجهة المستعمر ، وهى لا تستطيع أن تعيش فى عالمه ، فاتخذت لهـــا من الـكتب والقراءة والدرس عالمـاً خاصاً ، تعيش فيه ، وتستغرق فى شواغله ، وتنأى فيه بنفسها عن ذلك العالم البغيض .

وبذلك استمرت للحياة الأدبية والعلمية مساربها الخفية ، تحت الحياة الظاهرة التى يسيطر عليها المستعمر ، ويفرض عليها من القيود والحدود مايشيع فيها الجهل ويغمرها بالظلام ، على النحو الذى رأينا صورة منه .

وكان من ذلك مانرى فى أواخر القرن التاسع عشر من وجود أسر علمية حريصة على استبقاء صفتها ، فهى شديدة الحرص على أن تأخذ أبناءهـــا بالعلم تلقنهم إياه ، وتنشئهم عليه ، ثم لا تـكتفى بذلك ، فهى تبعث بهم إلى حيث يستطيعون الاستزادة منه واستـكماله ، حتى يستمر بهم هذا الميراث الذى ورثوه جيلا بعد جيل ، وجاء المستعمر يريد القضاء عليه .

ومن هذه الأسر التى أتيح لنا فى بعض قراءاتنا أن نتعرف إليها أسرة الزاهرى . ونستطيع أن نعرف من علمائها ، فى سياق ما يقصه الأستاذ محمد سعيد الزاهرى من ترجمة حياته ، جده الشيخ على بن ناجى الزاهرى ، وعمه

الشيخ عبد الرحيم الزاهرى ، وعلى بن العابد السنوسى الزاهرى ، وقد نشأ بينهم ـ وتعلم ـ أول ما تعلم ـ بهم . ثم وجه إلى قسنطينه ليدرس على الشيخ عبد الحميد بن باديس ، ثم مضى بعد ذلك إلى تونس ، يستكمل فى جامع الزيتونة دراسته(١) .

ومن هذه الأسر التى استمر بها التيار العلمى أسرة أحمد بن كاتب الغزالى الشاعر .

ويحكى عن نفسه أنه تعلم بواسطة الوالد ، ثم يتحدث عن والده ، فيقول : « وكان الوالد ـ غفر الله له ـ متضلعاً فى تفسير القرآن الكريم والحديث والتاريخ الإسلامى ، متبعاً ما كان عليه السلف الصالح ، متباعداً عن البدع ـ والزيادة فى الدين ماليس منه »(٢)

ومنها أسرة الابراهيمى ، وعنها يتحدث الأستاذ محمد البشير الابراهيمى حديثاً مستفيضاً فى المقال الذى ترجم به لنفسه ، ووجهه إلى مجمع اللغة العربية . وفيه نعرف كثيراً من صور الحياة العلمية فى أواخر القرن التاسع عشر ، كما نتبين فيه مبلغ الحرص على هذه الحياة واستمرارها .

قال : « نشأت فى بيت والدى كما ينشأ أبناء بيوت العلم ، فبدأت فى التعلم وحفظ القرآن الكريم فى الثالثة من عمرى ، على التقليد المتبع فى بيتنا ، الشائع فى بلدنا . وكان الذى يعلمنا الكتابة ويلقننا حفظ القرآن جماعة من أقاربنا من حفاظ القرآن ، ويشرف علينا إشرافاً عالياً عالم البيت بل الوطن كله فى ذلك الزمان ، عمى شقيق والدى الأصغر ، الشيخ محمد المكى الابراهيمى ، رحمه الله وكان حامل لواء الفنون العربية غير مدافع ، من نحوها وصرفها واشتقاقها ولغتها

---

(١) شعراء الجزائر فى العصر الحاضر ١ : ٦٢ .
(٢) المصدر نفسه ١ : ١٦٠ .

أخذ كل ذلك عن البقية الصالحة من علماء هذه الفنون بإقليمنا ، منهم العلامة المتقن الشيخ ربيع قرى اليملاوى، ومنهم العلامة الشيخ محمد أبو القاسم البوجليلى ومنهم العلامة الشيخ محمد أبو جمعة القلى خاتمة المتبحرين فى العربية والفقه . ولم يكن هؤلاء العلماء رحلوا إلى الأمصار الكبرى ذات الجامعات العلمية التاريخية كفاس وتونس والقاهرة . وإنما كانوا يتوارثون العلوم الإسلامية ، طبقة عن طبقة ، إلى الأجيال المتخرجة من مدن العلم الموجودة بوطننا ، كبجاية ، وقلعة بنى حماد ، وكلتاهما قريبة من مواطننا ، وكلتاهما كانت مناراً للعلم ومهجرا لطلابه ، ومطلعاً لشموسه، إلى الفترة التى تبدأ بالاحتلال التركى . وكان أئمة العلم لا يعتمدون فى تخرجهم على الشهادات الرسمية ، وإنما كانو يعتمدون على الإجازات من مشايخهم الذين يأخذون عنهم .

فلما بلغت سبع سنين استلمنى عمى من معلمى القرآن ، وتولى تربيتى وتعليمى بنفسه ، فكنت لا أفارقه لحظة ، حتى فى ساعة النوم . فكان هو الذى يأمرنى بالنوم ، وهو الذى يوقظنى منه ، على نظام مطرد فى النوم والأكل والدراسة . وكان لا يخليني من تلقين ، حتى حين أخرج معه وأماشيه للفسحة ، فحفظت فنون العلم المهمة فى ذلك السن ، مع استمرارى فى حفظ القرآن . فما بلغت تسع سنين من عمرى حتى كنت أحفظ القرآن ، مع فهم مفرداته وغريبه ، وكنت أحفظ معه ألفية ابن مالك ومعظم الكافية له ، وألفية ابن معطى الجزائرى ، وألفيتى الحافظ العراقى فى السير والأثر ، وأحفظ جمع الجوامع فى الأصول ، وتلخيص المفتاح للقاضى القزوينى ،ورقم الحلل فى نظم الدول لابن الخطيب ، وأحفظ الكثير من شعر أبى عبد الله ابن خميس التلمسانى ، شاعر المغرب والأندلس فى المائة السابعة ، وأحفظ معظم رسائل بلغاء الأندلس ، مثل ابن الشهيد ، وابن برد ، وابن أبى الخصال ، وأبى المطرف بن أبى عميرة ، وابن الخطيب . ثم لفتني عمي إلى دواوين فحول المشارقة ، ورسائل بلغائهم ، فحفظت

صدراً من شعر المتنبي ، ثم استوعبته بعد رحلتي إلى الشرق ، وصدرا من شعر الطائيين ، وحفظت ديوان الحماسة ، وحفظت كثيراً من رسائل سهل بن هرون وبديع الزمان . وفي عنفوان هذه الفترة كنت حفظت بإرشاد عمي كتاب كفاية المتحفظ للأجدابي الطرابلسي ، وكتاب الألفاظ الكتابية للهمذاني ، وكتاب الفصيح لثعلب ، وكتاب إصلاح المنطق ليعقوب السكيت . وهذه الكتب الأربعة هي التي كان لها معظم الأثر في ملكتي اللغوية .

ولم يزل عمي — رحمه الله — يتدرج بي من كتاب إلى كتاب تلقينا وحفظاً ومدارسة للمتون والكتب التي حفظتها حتى بلغت الحادية عشرة ، فبدأ لي في درس ألفية بن مالك ، دراسة بحث وتدقيق . وكان قبل ذلك أقرأني كتب ابن هشام الصغيرة قراءة تفهم وبحث . وكان يقرئني مع جماعة الطلاب المنقطعين عنده لطلب العلم ، على العادة الجارية في وطننا إذ ذاك ، ويقرئني وحدي ، ويقرئني وأنا أماشيه في المزارع ، ويقرئني على ضوء الشمع ، وعلى قنديل الزيت ، وفي الظلمة ، حتى يغلبني النوم . ولم يكن شيء من ذلك يرهقني لأن الله تعالى وهبني حافظة خارقة للعادة ، وقريحة نيرة ، وذهنا صيوراً للمعاني ولو كانت بعيدة ، ولما بلغت أربع عشرة سنة مرض عمي مرض الموت ، فكان لا يخليني من تلقين وإفادة ، وهو على فراش الموت ، بحيث إني ختمت الفصول الأخيرة من ألفية ابن مالك عليه . وهو على تلك الحالة[1] » .

وإنما يعنينا من هذه الوثيقة ما تدل عليه من حرص بيوت العلم ، حرصاً يبلغ مرتبة التحدي ، على استمرار الحياة العلمية . واستبقاء هذا الوجه من وجوه الشخصية الجزائرية ، رغم كل ما كان يعترض ذلك من عقبات يقيمها الاستعمار ، بفرض القيود ، ومطاردة رجال العلم ، فكان تيار الحياة العلمية

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية ، الجزء الحادي والعشرون ، ص ١٣٦ — ١٣٧ .

الجزائرية يحاول دائماً التغلب على هذه العقبات ، بالإصرار حيناً ، وبالحيلة حيناً آخر ، وبالهجرة حيناً ثالثاً .

وليست الهجرة شيئاً جديداً فى الجزائر ، فقد كان الجزائريون ما يزالون يهاجرون فى طلب العلم ، ولـكنها اتخذت بعد الاستعمـار الفرنسى صورة جديدة ، اقترن فيها طلب العلم بالفرار من الظلم وتجنب الوقوع تحت سلطان الاستعمـار . وقد أتاحت هذه الهجرة للروح الجزائرية أسبـاب قوة جديدة ، لتعود بعد فتنفخ فى الجزائر ما يرد إليها حياتها ، ويدفعها فى سبيـل استرداد شخصيتها .

وكانت هذه الهجرة تتخذ فى بعض الأحيان صورة جماعية ، متجهة إلى الشرق الإسلامى : مصر وسوريا والحجاز وتركيا . وقد أشار الأستاذ علال الفاسى إلى حركتى هجرة كبيرتين ، كانت أولاهما فى أواخر القرن التاسع عشر ، وكانت الأخرى فى أوائل القرن العشرين .

أما الأولى فقد ذكرها فى كتابه « الحركات الاستقلالية فى المغرب العربى » فقال : إن عدداً كبيراً من العائلات المحترمة هاجر إلى المشرق وتركيا ، سنة ١٨٩٨ — ١٨٩٩ ، فرارا من الحـكم الفرنسى . وأما الأخرى فقد ذكرها فى كتابه « المغرب العربى منذ الحرب العالمية الأولى » فقال : إن تنفيذ التجنيد الإجبارى ، سنة ١٩١١ « أدى إلى حركة هجرة عظيمة من المسلمين ، لاسيا فى نواحى تلمسان ، إذ هاجر ثمانمائة عائلة إلى سوريا ومصر ، مصرحين بأنهم لن يدخلوا الحرب تحت علم غير علم المؤمنين » .

على أنه يبدو أن حركة الهجرة الجماعية كانت مستمرة من قبـل الهجرة الأولى التى ذكرها الأستاذ علال ، وإن لم تـكن — فيما نحسب — بهذه الصورة الضخمة . فقد ذكر الأستاذ الطيب المقبى ، وهو أحد مؤسسي جمعية

العلماء المسلمين الجزائريين ، فى الفصل الذى ترجم به لنفسه ، فى كتاب شعراء الجزائر فى العصر الحاضر، أن عائلته انتقلت « مهاجرة من بلدة سيدى عقبة ، إلى الحجاز ، بقضها وقضيضها . أنثاها وذكرها ، كبيرها وصغيرها ، سنة ١٣١٣ ، قاصدة مكة المكرمة » ؛ يعنى أن ذلك كان سنة ١٨٨٥ أو سنة ١٨٨٦ .

وإلى جانب هذه الهجرات الجماعية كانت الهجرات الفردية متواترة ، فراراً من الحكم الاستعمارى وتجنباً لمكروه الحياة إلى جانب المستعمر، والتماساً للأمن والطمأنينة . وطلباً للعلم .

ومن ذلك هجرة الأستاذ البشير الإبراهيمى ، سنة ١٩١٢ ، ملتحقاً بأبيه الذى هاجر إلى المدينة المنورة ، سنة ١٩٠٨ ، فراراً من ظلم فرنسا .

وهجرة الأستاذ عبد الحميد بن باديس إلى تونس ، ثم إلى الشرق العربى .

وكانت جنبات المشرق إذ ذاك — فيما بين أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين — تتجاوب بالدعوة إلى تحرير البلاد العربية من الاستعمار الذى أخذ يهاجمها ، مقروناً ذلك بالدعوة إلى تحرير العقل من الأوهام ، وتخليص الدين مما ران عليه وكدر صفاءه ، خلال القرون الأخيرة والرجوع به إلى ينابيعه الأولى ، وهى الدعوة التى كان يحمل لواءها الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، وتلميذه رشيد رضا . كما يبدو لنا أن عبد القادر الجزائرى كان — من قبل — من الذاهبين ذلك المذهب والداعين إليه .

فلا جرم كان لهذه الهجرة أثرها فى تلقيح العقول وتنوير البصائر ، وفى تقوية الروح الجزائرية المتمثلة فى أولئك المهاجرين وبعث نشاطها ، وفى إثارة الرغبة فى تخليص الجزائر مما حاق بها ، وفى درس حالتها درساً موضوعياً متأنياً وتبين وسائل علاجها .

وكذلك كان المهجر هو التربة التى وضعت فيها بذرة جمعية العلماء المسلمين الجزائرين على النحو الذى نراه واضحاً صريحاً فيما يتحدث به الأستاذ محمد البشير الإبراهيمى عن تأسيس هذه الجمعية ، وذلك إذ يقول فى الفصل الذى رجعنا إليه منذ قليل :

« كان من تدبير الأقدار الإلهية للجزائر ، ومن مخبآت الغيوب لها ، أن يرد على بعداستقرارى بالمدينة المنورة ، سنة وبضعة أشهر ، أخى ورفيقى فى الجهاد بعد ذلك الشيخ عبد الحميد بن باديس ، أعلم علماء الشمال الأفريقى ولا أغالى ، وبانى النهضات العلمية والأدبية والاجتماعية والسياسية للجزائر .

وبيت ابن باديس فى قسنطينة بيت عريق فى السؤدد والعلم ينتهى نسبه فى سلسلة كعمود الصبح إلى المعز بن باديس مؤسس الدولة الصنهاجية الأولى التى خلفت الأغالبة على مملكة القيروان ، ومدت ظلها على قسنطينة ومقاطعتها حينا من الدهر ، ومع تقارب بلدينا ، بحيث لا تزيد المسافة بيننا على مائة وخمسين كيلو متراً ، ومع أننا لدتان فى السن ، يكبرنى الشيخ بنحو سنة وبضعة أشهر ، رغم ذلك كله فإننا لم نجتمع قبل الهجرة إلى المدينة ولم نتعارف إلا بالسماع ، لأننى كنت عاكفاً فى بيت والدى على التعلم ثم على التعليم ، وهو كان يأخذ العلم على علماء قسنطينه ، متبعاً لتقاليد البيت ، لا يكاد يخرج من قسنطينة ، ثم بعد بلوغ الرشد ارتحل إلى تونس ، فأتم فى جامع الزيتونة تحصيل علومها .

كنا نؤدى فريضة العشاء الأخيرة كل ليلة فى المسجد النبوى ، ونخرج إلى منزلى ، فنسمر مع الشيخ ابن باديس منفردين إلى آخر الليل ، حين يفتح المسجد ، فندخل مع أول داخل لصلاة الصبح ثم نفترق إلى الليلة الثانية ، إلى نهاية ثلاثة الأشهر التى أقامها الشيخ بالمدينة المنورة .

كانت هذه الأسمار المتواصلة كلها تدبيراً للوسائل التى تنهض بها الجزائر ، ووضع البرامج المفصلة لتلك النهضات الشاملة ، التى كانت كلها صوراً ذهنية تتراءى فى مخيلتنا ، وصحبها من حسن النية وتوفيق الله ما حققها فى الخارج بعد بضع عشرة سنة . وأشهد الله على أن تلك الليالى من سنة ١٩١٣ ميلادية هى التى وضعت فيها الأسس الأولى لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين التى لم تبرز للوجود إلا فى سنة ١٩٣١ » .

٩

وإذن فقد نشأت فكرة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ـ أول ما نشأت ـ فى هذه الاجتماعات ، وفى خلال هذه الأسمار الطليقة التى جعل هذان الشابان يزجيان بها لياليهما ؛ ويتفرجان بها من همومهما . وقد كان الهم الأكبر لهما هو « الجزائر » التى تركاها بين مستعمر دخيل ، وطائفة من رجال الطرق ، يتجرون باسم الدين ، وقد نكروا صورته ، وشوهوا معالمه ، كما استطاع الاستعمار أن يتخذ منهم أداة طيعة له .

وأكبر الظن أنه كان يشاركهما فى مجالسهما بعض لداتهما من أبناء الجزائر ، الذين اتخذوا من المدينة موطناً لهم ، وقد دفعهم إليها ما دفعهما ، وانطوت نفوسهم على مثل ما انطوت عليه نفساهما ، من الأسى والوجيعة ، ومن التطلع إلى ما عسى أن يكشف عن الجزائر بعض غمائها ، كالطيب بن محمد ابن ابرهيم العقبى . وكان أقدم بالمدينة عهداً ، وأوثق بها صلة ، فقد قدمها مع أسرته ، سنة ١٨٩٦ ، أى منذ سبعة عشر عاماً ، طفلاً لم يكد يتجاوز السابعة ، فنشأ بها ، وعرف مختلف بيئاتها . وكان عند قدوم البشير ، ثم ابن باديس ، شاباً مكتمل الشباب ، متفتح الذهن متوثب الفكر ، شديد الطموح ، يكتب فى الصحف ، ويشارك بذلك فى بعض القضايا السياسية والاجتماعية . فكان من الطبيعى أن تنعقد الصلة بينه وبينهما ، وإن لم يذكره الأستاذ البشير الإبراهيمى فى حديث تلك الأسمار والاجتماعات الليلية .

ولكننا — ونحن نؤرخ لمولد هذه الجمعية — لا نستطيع إغفاله ، وإن كنا لا نملك ما يعين لنا ـ على وجه ما ـ دوره فى هذه الفترة .

كما أنا لا نستطيع إغفال الجو العقلى السائد فى الشرق إذ ذاك ، والدعوة إلى تحرير العقل من آصار الجهالة والتقليد ، وتبرئته من غشاوات القرون المتأخرة ، والعودة بالدين إلى ينابيعه الأولى التى طمّتها بعض النزعات التى سادت العالم الإسلامى فى هذه القرون . مقروناً ذلك بالدعوة إلى تحرير الشعوب العربية والإسلامية من الاستعمار الذى مكنت له منها هذه الجهالة ، والبعد عن مبادىء الدين وتعاليمه الصحيحة .

على أنا لا نشك فى أن هذه الدعوة بلغت أصداؤها الجزائر ، بصورة ما ، فى بعض بيئاتها المقصورة ، منذ كان جمال الدين ومحمد عبده يصدران مجلة العروة الوثقى ، من باريس ، فأكبر الظن أن هذه المجلة استطاعت أن تجد سبيلها إلى الجزائر ، وأن تظفر فى بعض بيئاتها العلمية التى احتفظت بإرث الأمير عبد القادر ، بالاستجابة إليها .

ولكن الذى لا شك فيه هو أنها ظفرت في تونس بمنزلة كبيرة ممتازة ، مما نجد الدلالة عليه فى قول أحد الشعراء التونسيين ، وهو الشيخ محمد السنوسى ، فيها :

لئن دجت الأحلاك بالغيهب الأبقى وضلت حلوم بعد أن طرقت طرقاً
فقد وضح الصبح الذى بان عندما أنيط جمال الدين بالعروة الوثقى

ومن ذلك كان اتجاه الشيخ محمد عبده إليها ، بعد أن عطلت المجلة سنة ١٨٨٤ ، فأقام فيها أربعين يوماً ، يحف به رجال الإصلاح فيها ، وأعضاء جمعية العروة الوثقى من أهلها . وكانوا دعاة هذه الدعوة ، والمذيعين لمبادئها ، المنافحين عنها .

وتونس هى جارة الجزائر ، والصلة بينهما صلة وثيقة دائمة ، وخاصة شرق

الجزائر ، موطن ابن باديس والبشير الابراهيمى ، فطبيعى أن تبلغها أصداء الدعوة . على نحو ما .

وإذا كانت هذه الأصداء قد بلغت الجزائر — كما نقدر — ضعيفة خافتة متهافتة ، بطبيعة ما كان يسودها إذ ذاك ، فى أواخر القرن التاسع عشر ، فإنها عادت إليها فى صورة أوضح وأصرح وأقوى ، حين زارها الأستاذ الإمام سنة ١٩٠٣ ، واستقبله أهلها استقبالا حافلا ، تصوره هـذه الأبيات من شعر حافظ إبراهيم :

.. وسرى البرق للجزائر بالبشـ ـرى بقرب المطهر الأواب

فسعى أهلهـا إلى شاطىء البحـ ـر وفوداً بالبشر والـترحاب

أدركوا قدر ضيفهم فأقاموا يرقبون الإمام فوق السحاب[1]

واجتمع إليه المثقفون الجزائريون ، فحاضرهم وتحدث معهم . وأثارت محاضرته، وكانت فى تفسير سورة العصر ، وأحاديثه التى كانت — ولاريب— تتضمن مبادىء دعوته ، كوامن أفكارهم[2] .

وكان عبد الحميد بن باديس إذ ذاك فى نحو الخامسة عشرة من عمره ، أواخر عهد الصبا وأوائل عهد الشباب . وذلك وقت التطلع العقلى والتفتح الذهنى والتوثب الوجدانى . ولا نبعد أن يكون شهد درس الأستاذ الإمام فى تفسير صورة العصر، وأن ذلك كان مبدأ اهتمامه بتفسير القرآن ، وتوفير العناية به ، حتى بلغ فيه ذلك المبلغ الذى عرف به بعد .

ومضى الإمام بعد زيارته الجزائر إلى تونس ، يجـدد بها عهده ، ويشد

---

(١) ديوان حافظ ابراهيم ١ : ٢٤ .

(٢) انظر رسالة الرثاء التى كتب بها أحد فضلاء الجزائر إلى السيد رشيد رضا يعزيه فى موت الإمام ، فى تاريخ الأستاذ الإمام ٣ : ٢٩٧ .

بأنصاره وشيعته فيها أزره ، ويلتمس فيها سبباً من أسباب القوة لدعوته . وقد عرض الأستاذ محمد الفاضل بن عاشور لهذه الزيارة ، وأثرها فى الأوساط العلمية التونسية ، بعد أن تحدث عن مكانة الأستاذ الإمام فى هذه الأوساط ، منذ الزيارة الأولى ، فقال :

« وزار الأستاذ تونس ، زورته الثانية ، فى رجب ١٣٢١ — أوت ١٩٠٣ واهتزت لمقدمه أندية العلم والأدب والإصلاح ، وأقبل على الترحيب به واستضافته عظماء البلاد وعلماؤها ، وجرت الأحاديث والأبحاث ، والتقى به المنتقدون عليه ، واشتد الجدال بينه وبينهم فى مسائل كثيرة ، فلم يخرج بهم ذلك عن تعظيمه ورعاية مقامه ، فكانت زيارته موسم نفاق العلم والأدب والمباحث الإصلاحية الفكرية .

وكان أكثر الناس التفافا حوله ، والتحاما به ، مدة إقامته بتونس ، هم رجال الخلدونية وجريدة الحاضرة ، والشيخ سالم بو حاجب ، وكانت معرفته به قديمة ، ورسائله معه غير منقطعة ، والشيخ محمد الطاهر بن عاشور ، وهو يومئذ شاب فى الرابعة والعشرين ، يعد أبرز مدرسى الجامع شباباً وذكاء وعلماً وأدباً وأسبقهم إلى اتباع أستاذيه : الشيخ سالم بو حاجب ، والشيخ محمد النخلى فى تأييد الفكرة الإصلاحية ، فكان من أنصار الخلدونية ومن أعضاء مجلس إدارتها ، وكانت محبة الطلبة الزيتونيين فيه بالغة مبلغاً عظيما . .

وأقامت الخلدونية مجمعاً عاماً ألقى فيه الأستاذ الإمام محاضرته القيمة التى جعل عنوانها : « العلم وطرق التعلم » ، فكانت تأييداً وتقوية لحركة الإصلاحيين ، وأصبحت أساس العمل لحركة الإصلاح الزيتونى ، وقد نشرتها جريدة الحاضرة تباعاً ، ونقلتها عنها المؤيد والمنار وثمرات الفنون . وطبعت طبعتين مستقلتين : إحداهما بتونس والأخرى بمصر .

واشتعلت حمية الانتصار للاصلاح الدينى والتعليمى فى الشباب الزيتونى، وأصبح اسم الشيخ الطاهر بن عاشور مهتف دعوة المجددين، وهدف أفكار الرجعيين، إذ اعتبروه — كما اعتبره الأستاذ الإمام نفسه ـ سفير الدعوة فى الجامعة الزيتونية[1] » .

كان من الطبيعى أن تنفذ هذه الأصداء القوية المتواترة التى تجاوبت بها آفاق تونس إلى أعماق عبد الحميد بن باديس حين رحل إليها، طالب علم متفتح الذهن متوقد الخاطر، شديد التطلع إلى مجالى النشاط المختلفة فيها، مقبلا على شيوخه من علماء الزيتونة، ومنهم ـ ولا ريب ـ الشيخ الطاهر بن عاشور الذى كان يعتبر ـ كما يقول الأستاذ الفاضل ـ سفير الدعوة فى الجامعة الزيتونية .

حتى إذا قضى ابن باديس حاجته من الدراسة فى جامع الزيتونة، ونال درجتها العلمية، سنة ١٩٠٨، عاد إلى الجزائر، ونفسه تنازعه فى الإتجاه إلى المشرق، فبعد فترة أمضاها فيها أخذ سبيله إلى مصر، وقضى فيها بعض الوقت ثم مضى منها إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، واستقر من بعد فى المدينة المنورة وهناك لقى البشير الابراهيمى والطيب العقبى، كما سبق القول .

وأمضى ابن باديس فى المدينة ثلاثة أشهر، كانت حافلة بتلك الاجتماعات التى أشار إليها البشير الابراهيمى . وأكبر الظن عندنا أنه كان، فى خلال هذه الاجتماعات، متشبعاً برأى الأستاذ الإمام فيما ينبغى أن يكون الوسيلة الأولى إلى خلاص الشعوب الإسلامية من ربقة الإستعمار، إذ كان يرى أن هذه الوسيلة هى التعليم، لا السياسة، فبالتعليم يمكن تربية الشعوب وتكوينها التكوين الذى لا يستطيع معه المستعمر أن يخضعها . وكان ذلك رأيه منذ كان فى باريس، يصدر مع أستاذه جمال الدين مجلة العروة الوثقى . وكان يعرضه

---

(١) الحركة الأدبية والفكرية فى تونس، ص ٥٩—٦٠ .

عليه ويجادله فيه ، إذ كان من نقط الخلاف بين الرجلين ، كما يحكى ذلك فيما يرويه السيد رشيد رضا عنه ، إذ يقول :

« إننى لأعجب لجعل نبهاء المسلمين وجرائدهم همهم فى السياسة ، وإهمالهم أمر التربية الذى هو كل شىء ، وعليه ينبنى كل شىء ، إن السيد جمال الدين الأفغانى كان صاحب اقتدار عجيب ، لو صرفه ووجهه إلى التعليم والتربية لأفاد الإسلام أكبر فائدة . وقد عرضت عليه حين كنا فى باريس أن نترك السياسة ونذهب إلى مكان بعيد عن مراقبة الحكومات ، ونعلم ونربى من نختار من التلاميذ الذين يتبعوننا فى ترك أوطانهم ، والسير فى الأرض لنشر الإصلاح المطلوب ، فينتشر أحسن الانتشار . فقال : إنما أنت مثبط[1] » .

فقد كان التعليم هو الأمر الذى اتفق عليه — فيما يبدو — فى هذه الاجتماعات وكان مدار الأحاديث فيها . وكان تكوين طائفة من الشبان يستطيعون بهذا التكوين وقف التيار الجارف الذى سلطه الاستعمار على العربية أو تعويقه ، وجلاء الصورة الإسلامية الصحيحة التى أراد الاستعمار طمسها وتنكيرها ، هو الغاية التى يجب السعى إليها والعمل لها والتدبير لبلوغها ، حتى تكون مقاومة الاستعمار مبنية على أساس ثابت وطيد ، وحتى لا تتعرض لمكره وكيده وبطشه ، إذا هى تصدت له مواجهة ، فتنهار لأول صدمة .

كان ذلك — فيما نستظهر — هو الرأى الذى تمخضت عنه هذه الاجتماعات وهو الرأى الذى يتفق مع مسلك جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، من حين الإعداد لها إلى أن تم تمامها ، والذى نلمح صداه فى هذه الجملة من كلام البشير ، وهو يرد على بعض من تعرض للجمعية من رجال السياسة : « إن جمعية العلماء تعمل لسياسة التربية ، لأنها الأصل ، وبعض ساستنا — مع الأسف — يعملون

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٨٩٤ .

اتربية السياسة ، ولا يعلمون أنها فرع لا يقوم على أصله . وأى عاقل لا يدرك أن الأصول مقدمة على الفروع[1] » .

وهكذا لم يكد ابن باديس يعود إلى الجزائر ، ويبلغ قسنطينة ، موطنه ومقر أسرته ، حتى أخذ فى تحقيق ما اتفق عليه فى هذه الاجتماعات ، فاتخذ فى « الجامع الأخضر » مجلساً يجلس إليه الطلاب فيه ، يأخذون عنه تفسير القرآن وحديث الرسول ، والتاريخ الإسلامى ، وفنون العربية . وكان له فى ذلك كله أسلوبه الخاص،الذى يجمع بين بسط الحقائق وإيقاظ الضمائر وإثارة الكوامن. ولعلنا نستطيع أن نتبين صورة منه فى الفصول التى كان ينشرها بمجلة الشهاب بعنوان « مجالس تذكير » .

وأخذ فى إنشاء المدرسة التى أرد أن تكون نمطاً فريداً فى الجزائر،تحقق له غايته ، ولا ريب أن مكان أسرته ، وهى أسرة عريقة ، كان الاستعمار يحسب حسابها ويداريها ، مكنت له من أن يقوم بذلك النشاط ، وينشىء هذه المدرسة ويبث الدعوة لها ، فى خلال جولاته التى كان لا يفتأ يقوم بها فى أنحاء الجزائر ، داعياً ومعلماً .

قال الأستاذ محمد الهادى الزاهرى ، فيما كتبه ترجمة لنفسه :

بعد أن أتممت القرآن رأى والدى أنه لا بد من إرسالى لطلب العلم ، ولحسن الحظ وافق غرضه هذا قدوم الأستاذ الكبير العلامة عبد الحميد باديس بلدنا ، فاجتمع به أعيان البلد ، وعرضوا عليه إرسال فريق من أبنائها إلى مدرسته ، فقبل ذلك مغتبطاً .

جئت قسنطينة فى حين لم أعرف للعلم إلا اسمه ، فأخذت أزاول عليه

---

(١) عيون البصائر ص ٣٧ .

ما كنت مستعداً له، إلى أن قرأت عليه كتباً فى اللغة وقواعدها ، والانشاء وكتباً فى التوحيد ، عرفنا بها معنى التوحيد ، وخرجت بها من التقليد ، وشيئاً فى الفقه لا أذكر من كتبه غير « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » لابن رشد الحفيد . وفى التفسير شيئاً ليس باليسير ، يريك الدين وجواهره ، والإسلام ومفاخره .

كنت قبل صحبتى لهذا الأستاذ الإمام ولوعاً بأباطيل الخرافيين من الطرقيين ، راسخ اليقين فى الإيمان بطواغيت الدجالين . ولقد أصبحت — والحمد لله — حر الضمير والعقيدة والفكر ، راسخ اليقين فى أن الإسلام هو ما جاء به محمد ، صلى الله عليه وسلم ، لا التصوف ولا مايدعيه الصوفيون أو المتصوفون .

بدأت أقتبس أنوار الحياة الجديدة ، يوم أن وقف بنا على مطلع شمس القرآن ، وسيرة رسولنا الأعظم ، صلى الله عليه وسلم ، وعلى أبطال الجزيرة العربية . . . ومن حضر درساً على هذا الأستاذ رأى رأى العين ، وترك المجال للرجال[1] » .

ولعلنا نرى فى هذا شيئاً من منهج هذه المدرسة التى كانت طرازاً جديداً للتعليم فى الجزائر ، كما نحس فيه بما أحدثت من هزة كبيرة أيقظت ما غفا من النوازع الإسلامية ، وجلت ما انطمس منها ، وأبرزت ما كمن من الروح العربية .

ولعله يكفينا فى بيان الآثار التى نشأت عن هذه المدرسة ، وعن نشاط ابن باديس عامة فى هذه الفترة ، ما كتبه فى ذلك الأستاذ محمد البشير الإبراهيمى

---

(١) شعراء الجزائر فى العصر الحاضر ١ : ١٨٤ ، ط تونس ، ١٩٢٦ .

بعد حديثه عن اجتماعات المدينة، وذكره عودة الشيخ ابن باديس إلى الجزائر، وذلك إذ يقول :

« وشرع الشيخ بعد رجوعه ، من أول يوم ، فى تنفيذ الخطوة الأولى من البرنامج الذى اتفقنا عليه ، ففتح صفوفاً لتعليم العلم ، واحتكر مسجداً جامعاً من مساجد قسنطينة لإلقاء دروس التفسير ، وكان إماماً فيه ، دقيق الفهم لكتاب الله ، فما كاد يشرع فى ذلك ويتسامع الناس به ، حتى انهال عليه طلاب العلم من الجبال والسهول ، إلى أن ضاقت بهم المدينة ، وأعانه على تنظيمهم وإيوائهم وإطعام المحاويج منهم ، جماعة من أهل الخير ومحبى العلم فقويت بهم عزيمته ، وسار لا يلوى على صائح ، واشتعلت الحرب العالمية الأولى وهو فى مبدأ الطريق ، فاعتصم بالله فكفاه شر الاستعمار ، وكان له من وجود والده درع ووقاية من بطش فرنسا التى لا تصبر على أقل من هذه الحركات .

وكان لوالده مقام محترم عند حكومة الجزائر ، فسكتت عن الابن احتراما لشخصية الوالد . وظهرت النتائج المرجوة لحركته فى السنة الأولى ، وكانت فى السنة الثانية وما بعدها أكبر ، وعدد الطلبة أوفر ، إلى أن انتهت الحرب ، ورجعت إلى الجزائر . . . ورأيت بعينى النتائج التى حصل عليها أبناء الشعب الجزائرى فى بضع سنوات من تعليم ابن باديس ، واعتقدت من ذلك اليوم أن هذه الحركة العلمية المباركة لها ما بعدها ، وأن هذه الخطوة المسددة التى خطاها ابن باديس هى حجر الأساس فى نهضة عربية فى الجزائر ، وأن هذه المجموعة من التلاميذ التى تناهز الألف هى الكتيبة الأولى من جند الجزائر . ولمست بيدى آثار الإخلاص فى أعمال الرجال . ورأيت شبانا ممن تخرجوا على يد هذا الرجل وقد أصبحوا ينظمون الشعر العربى بلغة فصيحة ،

وتركيب عربي حر ، ومعان بليغة ، وموضوعات منتزعة من صميم حياة الأمة وأوصاف رائعة فى المجتمع الجزائرى ، وتشريح لأدوائه . ورأيت جماعة أخرى من أولئك التلامذة ، وقد أصبحوا يحبرون المقالات البديعة فى الصحف فلا يقصرون عن أمثالهم من إخوانهم فى الشرق العربى ، وآخرين يعتلون المنابر ، فيحاضرون فى الموضوعات الدينية والاجتماعية ، فيرتجلون القول البليغ المؤثر ، والوصف الجامع ، ويصفون الدواء الشافى بالقول البليغ[1] » .

هذه صورة من نشاط ابن باديس ، فى مدى سنوات سبع ، انفرد فيها بعبء هذه الحركة ، يحمله وحده ، إلى أن عاد رفيقاه فى المدينـة : البشير الإبراهيمى والطيب العقبى ، كما انضم إلى الثلاثة أحمد توفيق للدنى . وكانت حكومة تونس قد رابها نشاطه السياسى ، فأبعدته ، فعاد إلى الجزائر . فكان فى اجتماع هؤلاء الأربعة ما آزر الحركة ، وشد من عضد الدعوة إلى الإسلام والعروبة ، واستنقاذ أصول الشخصية الجزائرية ، ومكن لها من أن يتسع مداها ويمتد نشاطها إلى أنحاء مختلفة من القطر الجزائرى ، إذ تعددت مراكزها بتعدد مواطن هؤلاء الأربعة . فإلى جانب قسنطينة التى كان يتولاها ابن باديس ، كان البشير الإبراهيمى يقيم فى اسطيف ، والطيب العقبى فى بسكرة ، وتوفيق للدنى فى مدينة الجزائر .

ولعل مما يزيدنا تمثلا لهذه الحركة بعـد عودة هؤلاء الرفاق أن ننقل صورة من نشاط أحدهم ، وهو البشير الإبراهيمى ، كما رسمها بقلمه . قال :

« . . . وحللت بلدى ، وبدأت من أول يوم فى العمل الذى يؤازر عمل أخى ابن باديس . بدأت أولا بعقد الندوات العلمية للطلبة ، والدروس الدينية

(١) مجلة مجمع اللغة العربية ، الجزء الحادى والعشرون ، ص ١٤١ — ١٤٢ .

للجماعات القليلة ، فلما تهيأت الفرصة انتقلت إلى إلقاء الدروس المنظمة للتلامذة للازمين ، ثم تدرجت لإلقاء المحاضرات التاريخية والعلمية على الجماهير الحاشدة ، فى المدن العامرة ، والقرى الآهلة ، وإلقاء دروس فى الوعظ والإرشاد الدينى كل جمعة فى بلد . ثم لما تم استعداد الجمهور الذى هزته صيحاتى إلى العلم أسست مدرسة صغيرة ، لتنشئة طائفة من الشبان نشأة خاصة ، وتمرينهم على الخطابة والكتابة وقيادة الجماهير ، بعد تزويدهم بالغذاء الضرورى من العلم . وكانت أعمالى هذه فى التعليم الذى وقفت عنايتى عليه فاترة أحياناً ، لخوفى من مكايد الحكومة الاستعمارية ، إذ ليس لى سند آوى إليه ، كما لأخى ابن باديس . وكانت حركاتى منذ حللت بأرض الوطن مثار ريب عند الحكومة ، ومبعث شكوك ، حتى صلاتى وخطبى الجمعية ، فكنت اتقعلى لها بألوان من المخادعة ، حتى إنى تظاهرت لها علة سنين بتعاطى التجارة ، وغشيان الأسواق لإطعام من أعولهم من أفراد أسرتى ، ولكنها لم تنخدع ، ولم تطمئن إلى حركتى ، فكان بوليسها يلاحقنى بالتقارير ، ويضيق الخناق على كل من يزورنى من تونس أو الحجاز . كل هـــذا وأنا لم انقطع عن الدروس لطلاب العلم بالليل » .

وإلى جانب هذا النشاط التعليمى اصطنعت الحركة وجوها أخرى من النشاط ، فاتخذت من الصحافة أداة لها تعبر عنها ، وتمكن للناشئة من خريجيها أن يمارسوا الكتابة فيها ، فأنشأ ابن باديس جريدة « المنتقد » ، فلما بادرها الاستعمار بالإلغاء أنشأ مجلة « الشهاب » ، سنة ١٣٤٣ هـ (١٩٢٤ م) ، كما أنشأ الطيب العقبى ، فى بسكرة ، جريدة « الإصلاح » ، سنة ١٩٢٧ .

وكذلك اتجهت الحركة إلى إنشاء الأندية التى تتيح لجماعات الجزائريين المثقفين أن يلتقى فيها بعضهم بعضاً ، يتحدثون ويتسامرون ، ويكشف كل

واحد منهم لأخيه عن ذات نفسه ، ويفضى إليه بما يعرف ويرى ، وتكون وسيلة إلى خلق نوع من الرأى العام ، يقوى الصلة بينهم ، ويمحص أفكارهم ، كما تلقى فيها بعض المحاضرات التى تفتح الآفاق أمام روادها ، والتى تخدم أغراض الحركة ، بطريقة أو بأخرى ، وتمكن ، فى الوقت نفسه ، للناشئة أن يمارسوا الخطابة ، ويواجهوا الجمهور ، ويمرنوا بذلك على فن القيادة .

ولا ندرى بأية حيلة أمكن أن يخرج إلى الوجود نادى الترقى ، فى مدينة الجزائر ، سنة ١٩٢٦ ، مع ترصد الاستعمار لأية بادرة يمكن أن تفسد سياسته ، أو تضع العقبات فى طريقه .

ومهما يكن من أمر فقد كان إنشاء هذا النادى حدثاً من الأحداث الخطيرة فى التاريخ الجزائرى الحديث ، حتى ليعتبره الأستاذ أحمد توفيق المدنى ثانى حدثين خطيرين فى عام ١٩٢٦ ، والأول هو إنشاء جمعية نجم شمال إفريقية فى باريس ، فهو فى أرض الوطن نظير تلك الجمعية خارجها .

وقد عقد له الأستاذ المدنى فى كتابه عن الجزائر فصلا خاصاً ، قال فيه :

« لم يكن الجزائريون يعرفون الاجتماعات منذ الاحتلال الفرنسى . وكانت قوانين الأنديجينا تحرم الاجتماعات ، كما أسلفنا ، فكانت كل الحركات الجزائرية تتسم بقلة النظام ، داخل القطر الجزائرى ، إلى أن وفقنا الله لوضع معقل بعاصمة القطر الجزائرى ، كان له تأثير العظيم على الحياتين السياسية والاجتماعية . وذلك هو « نادى الترقى » الذى تمكنا من تأسيسه بعد جهود عظيمة ، فى أحسن موقع من عاصمة الجزائر . فكانت قاعاته الفسيحة تجمع النخبة المفكرة كلها ، سواء بالعاصمة أم بداخل البلاد ، وكانت المحاضرات والمسامرات والحفلات الكبرى تتوالى فيه ، ويقبل الناس عليها إقبالا عظيما .

وكنا نسير بنادى الترقى — رغم القوانين الصارمة — فى طريق الدعوة المللية الوطنية من جهة ، وفى طـــريق الدعوة الإسلامية والعروبة الشاملة من جهة أخرى . وقاوم النادى نزعات الإندماج ، كما قاوم طلب الجنسية الفرنسية ، قصد الإحراز على الحقوق السياسية . وفى هذا النادى المبارك تمكنا من تحقيق الحلم الذى كان يراود دعاة الحركة العربية الإسلامية ، ألا وهو تأسيس هيئة إسلامية عربية ، تنهض بالبلاد نهضة جبارة ، داخل عروبتها وقوميتها وإسلامها، فكانت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين »[1] .

ففى هذا النادى وجد ابن باديس وأصحابه وتلاميذه مجالا جديداً يبرزون فيه نشاطهم ، ويبثون منه دعوتهم ، وينظمون صفوفهم ، ويجتذبون إليهم « النخبة المفكرة » .

وكان من خطبائه ومحاضريه الأستاذ أحمد توفيق المدنى . أحد العاملين فى إنشائه ، وكان شعاره فى خطبه ومحاضراته ، كما يحكى هو عن نفسه : « الإسلام ديننا ، الجزائر وطننا ، العربية لغتنا » . ومنهم الأستاذ الطيب العقبى ، وكان يحاضر به عشية كل أحد ، « فى آداب الدين وتعاليمه السامية » كما اتسعت منصته لبعض الشبان الذين تخرجوا فى مدارس ابن باديس ، ولا بأس أن يحاضر الواحد منهم بالعربية والفرنسية جميعاً ، فلم تكن هذه المدارس تحرم أبناءها من تعلم الفرنسية . بل لعلها كانت حريصة على أن تدفع بهم ، أو بالبعض منهم ، إلى إجادتها ، على ألا تطغى على العربية فتغمرها .

وهكذا مضت الحركة الباديسية ، فى العقد الثالث من القرن العشرين ، ثابتة الخطى ، واسعة الأفق ، متعددة وجوه النشاط ، لم تدع وسيلة لتحقيق غايتها إلا توسلت بها ، ولا سبيلا يفضى إلى بث الوعى بالشخصية الجزائرية ،

---

(١) هذه هى الجزائر ، ص١٦٥ .

متمثلة فى مقوماتها الإسلامية والعربية ، إلا سلكته ، فى حذر وتبصر ، وفى غير تزمت . وقد استطاعت أن تفرض نفسها على المجتمع الجزائرى ، كما وجد هذا المجتمع فيها معبراً يعبر عنه .

وتمكنت بذلك هذه الحركة من مواجهة النشاط الاستعمارى الكبير ، الذى أخذ يتمثل ، فى نهاية ذلك العقد الثالث ، فى الاحتفال بالعيد المئوى للعزو الفرنسى . وقد أخذ الاستعمار ينظم لذلك المهرجانات المختلفة التى قدر أن تكون فى مدى ستة أشهر كاملة ، وجعل يدعو الدول المختلفة لحضور هذه المهرجانات . وابتدأت هذه المهرجانات مقترنة بمظاهر الغرور والاستخفاف والقحة . وعادت الروح الصليبية التى صحبت الغزو الفرنسى وظلت تملى على المستعمر ، فمثلت فى هذه الاحتفالات منتفخة الأوداج ، كما يمكن أن تبدو فى هذه العبارة التى جاءت فى خطاب أحد كبار الساسة الفرنسيين . إذ يقول مخاطباً وفود الدول المدعوة : « لا تظنوا أن هذه المهرجانات من بلوغنا مائة سنة فى هذا الوطن ؛فقد أقام الرومان فيه قبلنا ثلاثة قرون ، ومع ذلك خرجوا منه . ألا فلتعلموا أن مغزى هذه المهرجانات هو تشييع جنازة الإسلام بهذه الديار » .

كان فى هذه المهرجانات التى امتلأت بمظاهر القحة والتبجح ، وكانت تحدياً سافراً صارخاً لمشاعر الدين والقومية ، ما أثار نفوس الجزائريين وهاج خواطرهم ، ومكن لشيعة ابن باديس وصحابته وتلاميذه أن يتخذوا منها مادة للتذكير بمآسى الاستعمار وجناياته على الدين والكرامة ، مما خيب ظنون الاستعمار وأفسد تدبيره ، وكما جاء على لسان الأستاذ البشير الإبراهيمى :

« فاستطعنا بدعايتنا السرية أن نفسد عليها كثيراً من برامجها ، فلم تدم

الاحتفالات إلا شهرين ، واستطعنا بدعايتنا العلنية أن نجمع شعب الجزائر حولنا ، ونلفت أنظاره إلينا » .

وهكذا حقق ابن باديس وأصحابه نجاحاً بعيد المدى فى مواجهة هـذا النشاط الاستعمارى ، بما أحبطوا من خططه ، وباستغلالهم إياه فى إذاعة مبادئهم ولفت الأنظار إليهم ، فقد اطمأنوا إلى أن دعوتهم ملاقية جواً ملائماً وأرضاً خصبة ، وأنهم يملكون بذلك القدرة على مواجهة الاستعمار علانية فى الميدان الذى اختاروه .

وهكذا أخذت فكرة إنشاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تخرج من مرحلة الإعداد والتهيئة ، إلى مرحلة التنفيذ والتنظيم .

وكان ذلك — كما يقول الأستاذ أحمد توفيق المدنى ، فيما نقلنا عنه آنفاً — فى نادى الترقى ، كما يقول فى موضع آخر : « ولم نكن إلا أربعة رجال عندما أخذنا فى ركن من أركان النادى نضع الأسس لتكوين جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » .

١٠

ويرسم الأستاذ محمد البشير الإبراهيمى ، أحد الأربعة المؤسسين ، صورة الخطوات الأولى لتأسيس الجمعية ، والجو السائد فى هذه الفترة ، فيقول :

« تكامل العدد وتلاحق المدد ؛ العدد الذى نستطيع أن نعلن به تأسيس الجمعية ، والمدد من إخوان لنا كانوا بالشرق العربى مهاجرين أو طلاب علم ، فأعلنا تأسيس الجمعية فى شهر مايو سنة ١٩٣١ ، بعد أن أحضرنا لها قانوناً أساسياً مختصراً من وضعى ، أدرته على قواعد من العلم والدين ، لا تثير شكا ولا تخيف . وكانت الحكومة الفرنسية فى ذلك الوقت تستهين بأعمال العالم المسلم ، وتعتقد أننا لا تضطلع بالأعمال العظيمة ، فخيبنا ظنها والحمد لله .

دعونا فقهاء الوطن كلهم . وكانت الدعوة التى وجهناها إليهم باسم الأمة كلها ، ليس فيها اسمى ولا اسم ابن باديس ، لأن أولئك الفقهاء كانوا يخافوننا ، لما سبق لنا من الحملات الصادقة على جمودهم ، ووصفنا أيام بأنهم بلاء على الأمة وعلى الدين ، لسكوتهم عن المنكرات الدينية ، وبأنهم مطايا للاستعمار ، يذل الأمة ويستعبدها باسمهم . فاستجابوا جميعاً للدعوة ، واجتمعوا فى يومها المقرر ، ودام اجتماعنا فى نادى الترقى بالجزائر أربعة أيام ، كانت من الأيام المشهودة فى تاريخ الجزائر . ولما تراءت الوجوه وتعالت أصوات الحق ، أيقن أولئك الفقهاء أنهم ما زالوا فى دور التلمذة ، وخضعوا خضوع المسلم للحق ، فأسلموا القيادة لنا ، فانتخب المجلس الإدارى من رجال أكفاء ، جمعتهم وحدة المشرب ووحدة الفكرة ، ووحدة النازع الاجتماعية والسياسية ، ووحدة المناهضة للاستعمار . وقد وكل المجتمعون ترشيحهم إلينا ، فانتخبوهم بالإجماع ، وانتخبوا ابن باديس رئيساً ، وكاتب هذه

الأسطر وكيلا نائباً عنه . وأصبحت الجمعية حقيقة واقعة قانونية ، وجاء دور العمل » .

كان إعلان تأسيس هذه الجمعية ، إذن ، في شهر مايو سنة ١٩٣١ . ومع ذلك فقد خالف ذلك بعض الكتاب ، فذكر الأستاذ علال الفاسي ، في كتابيه : « الحركات الاستقلالية في المغرب العربي » و « المغرب العربي منذ الحرب العالمية الأولى » أن تاريخ إنشائها هو سنة ١٩٢٨ ، وتابعه على ذلك الأستاذان حمدى حافظ ومحمود الشرقاوى في كتابهما : « الجزائر بين الأمس والغد » . وكما تقدم الأستاذ علال الفاسي بإنشائها ثلاثة أعوام تأخر بها الأستاذ عبد الله الركيبي خمسة أعوام ، فجاء في كتابه : « دراسات في الشعر العربي الجزائري الحديث » أنها برزت للوجود عام ١٩٣٦ . وما كان الأمر ليحتمل مثل هذا الخلاف .

وكان بنا في هذه الدراسة أن نتعرف إلى أعضاء المجلس الإدارى ، الذين يمثلون الجمعية ويبرزون نشاطها ، ويعدون على رأس الرعيل الأول من أعضائها ، ولكن الأستاذ الإبراهيمى لم يذكرهم ، وليس بين أيدينا من وثائق الجمعية ما نرجع إليه في معرفتهم . وإنما جهد ما نستطيعه الآن ، إلى أن يتاح لنا من مصادر للمعرفة ما نرجو ، هو أن نلتمس رجال الجمعية عامة فيما بين أيدينا من أجزاء « الشهاب » ، منهم من نعرف صفته في الجمعية ومنهم من لا نعرف ، ومنهم من نعرف شيئاً من نشاطه ، ومنهم من لا تكاد تتجاوز معرفتنا به حدود اسمه .

ومهما يكن من أمر فإنا نستطيع القول بأن من أبرز رجال الجمعية — بعد الأربعة المؤسسين — المبارك الميلي ، والعربي التبسى ، ومحمد السعيد الزاهرى ،

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية ، الجزء الحادى والعشرون ، ص ١٤٣ — ١٤٤ .

والهادى السنوسى الزاهرى ، والأمين العمودى ، والفضيل الورتيلانى ، ومحمد الميد ، والمولود بن الصديق الحافظى .

ومنذ أصبحت الجمعية حقيقة واقعة وكيانا قانونيا ماثلا ، كان من تمام ذلك أن توضع لائحتها الداخلية التى تعين أهدافها ، وتحدد نظمها وأسلوب العمل فيها . وقد كلف الأستاذ البشير الإبراهيمى بوضع مشروعها . وكانت تجربة جديدة فى الجزائر التى أصبحت الفرنسية ، منذ عهد بعيد ، لغة القانون واللوائح فيها ، حتى وقر فى الأذهان أنها وحدها القادرة على أدائها ، وأن العربيـة لاتصلح لها . فجاءت صياغة هذه اللائحة بالعربية حدثا من الأحداث التى حرصت الجمعية على إبرازها . ومن أجل ذلك كانت دعوتها طائفة من رجال القانون والصحافة ، من أصحاب الثقافة الفرنسية ، للمشاركة فى مناقشة هذه اللائحة . فأكبر الظن أن هذه الدعوة كانت — فى الوقت نفسه — دعوة لرؤية هذه التجربة اللغوية الجديدة التى ظل الأستاذ البشير الإبراهيمى يحمل فى نفسه شعور الفخر بها ، والاعتزاز بنجاحه فيها ، كما يبدو فى حرصه على التنويه بها ، وبما أثارت من إعجاب هؤلاء القانونيين والصحفيين الذين لم يملكوا إلا أن يعلنوا « فى نهاية عرض اللائحة إيمانهم بأن العربية أوسع اللغات ، وأنها أصلح لغة لصوغ القوانين ومرافعات المحامين ، وكأنما دخلوا فى الإسلام منذ ذلك اليوم » ، كما هو نص عبارته .

وقد حرصت الجمعية على انتهاج ما سنته لنفسها منذ كانت فـكرة ، وما التزمته فى مرحلة الإعداد ، من تجنب السياسـة ، وقصر نشاطها على الإصلاح الدينى والتعليمى ، حتى لا تواجه القوى الاستعمارية إلا فيما يتصل بهما ، كالتعليم العربى والمساجد والأوقاف الإسـلامية ، وحتى لا تتعرض لبطشه ، والحيلولة بينها وبين الطريق الذى اختطته ، والهدف الذى ارتسمته ،

من إحياء اللغة العربية بإنشاء المدارس العربية ، وإحياء الإسلام بتطهيره مما غشيه من ضلالات العصور المتأخرة ، وتحريره من السيطرة الاستعمارية،متمثلةفى رجال الدين الرسميين والطرقيين .

وتحت هذين الأصلين الكبيرين تندرج أعمال الجمعية التى ذكر الأستاذ البشير الإبراهيمى أمهاتها فى هذه البنود الثمانية :

١ — تنظيم حملة جارفة على البدع والخرافات والضلال فىالدين ، بواسطة الخطب والمحاضرات ، ودروس الوعظ والإرشاد ، فى المساجد ، والأندية ، والأماكن العامة والخاصة ، حتى فى الأسواق ؛ والمقالات فى جرائدنا الخاصة التى أنشأناها لخدمة الفكرة الإصلاحية .

٢ — الشروع العاجل فى التعليم العربى للصغار ، فيما تصل إليه أيدينا من الأماكن ، وفى بيوت الآباء ، ربحاً للوقت قبل بناء المدارس .

٣ — تجنيد المئات من تلامذتنا المتخرجين ، ودعوة الشبان المتخرجين من جامع الزيتونة للعمل فى تعليم أبناء الشعب .

٤ — العمل على تعميم التعليم العربى للشبان ، على النمط الذى بدأ به ابن باديس .

٥ — مطالبة الحكومة برفع يدها عن مساجدنا ومعاهدنا التى استولت عليها ، لنستخدمها فى تعليم الأمة دينها ، وتعليم أبنائها لغتهم .

٦ — مطالبة الحكومة بتسليم أوقاف الإسلام التى احتجنتها ووزعتها على معمريها ، لتصرف فى مصارفها التى وقفت عليها . (وكانت من الكثرة بحيث تساوى ميزانية دولة متوسطة) .

٧ — مطالبة الحكومة باستقلال القضاء الإسلامى ، فى الأحوال الشخصية مبدئياً .

٨ — مطالبة الحكومة بعدم تدخلها فى تعيين الموظفين الدينيين .

أما الوسائل التى جعلت الجمعية تتوسل بها لتحقيق هذه الغايات فهى الوسائل التى اتخذها ابن باديس وصحبه ، منذ نشأت الحركة . ولكن قيام الجمعية جعلها أكثر تنظيما ، وأشد نشاطاً ، وأبلغ أثراً . وهذه الوسائل تتلخص فى إنشاء المدارس ، واستخدام المساجد وبنائها ، وتأسيس الأندية ، وتكوين الجمعيات ، وإخراج الصحف والمجلات .

أما المدارس فقد أنشأت الجمعية خلال ثلاث سنوات مائة وخمسين مدرسة ، يتعلم بها ما يقرب من خمسين ألف تلميذ ، كما يقول مؤلفا كتاب الجزائر الثائرة . وبعض هذه المدارس كان يعتبر — إلى جانب الغرض التعليمى — مركزاً من مراكز النشاط الإجتماعى ، بما كانت تقيمه وتدعو إليه ، فى نهاية العام وفى المناسبات الدينية ، من حفلات حافلة بالخطب والشعر ، كمدرسة الشبيبة الإسلامية فى مدينة الجزائر .

وفى سبيل استخدام كل وسيلة لنشر التعليم العربى اتجهت الجمعية إلى الزوايا القديمة ، داعية إلى إصلاحها بحيث تكون ملائمة لروح العصر ، مذكرة بماضيها فى درس القرآن ، « وما يستلزمه من العلوم العربية والشرعية » ، منددة بما يذهب إليه « بعض المتأخرين من معلميها الذين يريدون أن يتصرفوا فيها كما شاءوا من أنها لم تؤسس إلا لقراءة القرآن ، مجرداً من كل شىء يؤدى إلى فهمه » ، كما يقول باعزيز بن عمر الزواوى ، فى مقال له عن « زوايا الزواوة » بمجلة الشهاب ، وكانت له عناية خاصة بهذا الموضوع ، فكان لا يفتأ يكتب فيه ، ويحاضر به .

ويبدو مما يقوله أن فكرة إصلاح التعليم نفذت إلى بعض هذه الزوايا، وحركت فيها الرغبة إلى مجاراة العصر، والاستجابة لدعوات المجددين، فقد ذكر عن واحدة منها « أن فيها استعداداً لهضم أفكار العصر الحاضر، ولقبول كل ما ينشده المفكرون الأحرار من الإصلاحات، وأنه كان لطلبتها طموح إلى ما ذاع أخيراً على صفحات الجرائد الجزائرية من فكرة إصلاح التعليم بمنطقة الزواوة، لكنهم عدموا من يقوم بذلك من الأساتذة الخبراء، حتى اهتدوا فى الأخير إلى الشيخ المولود الحافظى الذى عاد منذ سنوات من الأزهر الشريف يحمل إلى هذا الوطن المتعطش إلى أمثاله من العلوم والآداب والفضائل والتجارب ما يضىء سماء هذه البلاد، وفازوا به مدرساً. وهاهم الآن بين يديه يغرفون من بحر علومه الغزيرة وأدبه العالى[1] ».

واتخذ أعضاء الجمعية وأشياعها من المساجد أمكنه لنشر التعليم العربى، والدعوة إلى الإصلاح الدينى. ولكن الاستعمار لم يلبث أن أغلق المساجد دونهم، وحرمها على الدرس، وقصرها على أداء الشعائر، بواسطة موظفيها الذين عينهم. فاتجهت الجمعية إلى إنشاء المساجد الحرة التى لا تخضع لسلطانه، «وثارت نخوة الأمة، فأنشأت بمالها بضعة وتسعين مسجداً، فى سنة واحدة، فى أمهات القرى ».

كما اتجهت الجمعية إلى الأندية تنشئها — على غرار نادى الترقى — أو تدعو إلى إنشائها، وتشارك فى وجوه نشاطها. وكانت هذه الأندية تتيح لها من وجوه النشاط، ومن الاتساع لأنماط مختلفة من الناس، ما لا تتيحه المساجد بطبيعتها. فكان مما أنشئ فى السنة الثانية من تأسيس الجمعية نادى الاتحاد

---

(١) مجلة الشهاب، عدد نوفمبر، سنة ١٩٣١ .

بقسنطينه . وقد افتتح فى السادس عشر من شهر يوليه ، سنة ١٩٣٢ . وكان يوم افتتاحه يوماً مشهوداً ، بما اجتمع فيه من الشخصيات ، وما ألقى فيه من الخطب ، وما أنشد فيه من الشعر . فكان من خطبائه ، بعد كلمة رئيس هيئة النادى ، الدكتور محمد الصالح بن جلول ، الأستاذ عبد الحميد بن باديس ، والأستاذ مبارك بن محمد الميلى ، والأستاذ العربى بن بلقاسم التبسى ، والأستاذ محمد البشير الإبراهيمى . وكان شاعر الحفل هو شاعر قسنطينه ، أبو لبينة الخوجه.

وحفلة الافتتاح هذه التى تؤدى إلينا صورة منها مجلة الشهاب تقدم إلينا صورة من نشاط هذه الأندية، ومبلغ مشاركتها فى أداء رسالة الجمعية ، وهى التى لم تلبث أن انتشرت فى أنحاء مختلفة من الجزائر ، مثل ميلة ومستغانم وغيرهما .

وإلى جانب هذه الأندية ألفت الجمعيات الخيرية، تعقد فيها وفى مثل مدرسة الشبيبة الإسلامية اجتماعاتها التى تعتبر هى أيضاً مواسم أدب . ومن هذه الجمعيات الجمعية الخيرية بالعاصمة .

أما الصحافة فكان اهتمام الجمعية بها اهتماماً بالغاً ، إذ كانت وسيلتها الأولى إلى تكوين رأى عام حول مبادئها ، وأداتها فى رد الشبه ومناقشة المعترضين عليها ، كما كانت من أسبابها القوية إلى التمكين للغة العربية .

وكان للجمعية — إلى جانب مجلة الشهاب التى أنشئت فى مرحلة الإعداد وظلت صامدة تؤدى وظيفتها الدينية والأدبية — أربع جرائد أسبوعية ، هى البصائر والسنة والشريعة والصراط .

أما البصائر فقد قدر لها أن تظل إلى جانب الشهاب ، حتى قيام الحرب العالمية الثانية،وتقرير الجمعية ، ضمن موقف عام اتخذته ، وقفها هى وزميلتها الكبرى الشهاب. وأما الثلاث الأخرى فقد تعرضت لنقمة السلطات الاستعمارية

فعطلتها « وهى فى ميعة الشباب » على حد تعبير الأستاذ البشير الابراهيمى . وقد نص فى قرار تعطيل أخراها على منع كل صحيفة تصدرها الجمعية ، فتقدم إلى الميدان بعض أعضائها وأصدروا بعض الصحف بصفتهم الشخصية ، وإن كنا لا نعلم عن هذه الصحف أكثر من هذه الإشارة التى جاءت عرضاً فى إحدى مقالات الشهاب[١] .

---

(١) مجلة الشهاب ، عدد أبريل ، ١٩٣٤ .

١١

هذه بعض صور نشاط الجمعية فى للرحلة الأولى ، منذ إعلان تأسيسها إلى قرار وقف أعمالها ، بقيام الحرب العالمية الثانية .

وكما كان لهذا النشاط الواسع للدى، المتعدد الوجوه ، أثره فى إيقاظ ما غفى من إحساس الشعب الجزائرى بذاتيته ، واستعادة مقومات شخصيته ، كان له أثره فى صدور ردود فعل مختلفة ؛ فى أوساط الاستعمار ، وبعض الأوساط الجزائرية .

أما الاستعمار ، فبالرغم من أن الجمعية لم تواجهه بخصومه ، ولم تكشف له عن ذات نفسها ، بل لعلها كانت تصطنع معه من سلوك المجاملة ما كان يشق عليها ، ولكنها كانت تريد أن تتجنب به مخاوفه وشكوكه ، وما تثيره هذه المخاوف والشكوك ، فنرى — مثلاً — عبد الحميد بن باديس لا يكاد يبلغ مستغانم ، فى رحلته الصيفية الأولى من الجزائر إلى وهران ، حتى يبدأ بزيارة « السوبريفى »[1] . فإذا تطرق الحديث إلى سبب الرحلة وأغراض الجمعية ، أخذ فى مداراته ، وحاول أن يطمئنه بقوله : « إننا نريد للمسلمين أن يبلغوا فى المعارف والفلاحة والتجارة والصناعة إلى مستوى اخوانهم الفرنسيين ، ليتعاون الجميع بقوى متكافئة على خدمة الجزائر ، تحت الراية الفرنسية ، ويكونوا مثل جيرانهم أوادم على الحقيقة ، وتكون حالتهم مناسبة لسمعة فرنسا ، أم الرقى والمدنية[2] » . بالرغم من هذا كله ، ومما كانت تتكلفه الجمعية فى سبيل المداراة

---

(١) Le Sous-Préfet

(٢) مجلة الشهاب ، عدد نوفمبر ١٩٣١ .

والمصانعة ، فقد كان فى نشاطها ما أزعج السلطات الاستعمارية ، فجعلت تفرض القيود المختلفة على هذا النشاط .

وكان من ذلك المنشور الذى أصدره سنة ١٩٣٣ السكرتير العام لإدارة مدينة الجزائر، والذى أطلق عليه اسم «منشور ميشيل» نسبة إليه، « وبمقتضاه فرضت رقابة دقيقة على العلماء ، للاشتباه فيهم بأنهم يعملون على النيل من القضية الفرنسية ، وقصرت مهام الوعظ فى المساجد على الأئمة وأصحاب الإفتاء ، دون سواهم من رجال العلم والبيان . وعيّن ميشيل نفسه رئيساً للمجلس الاستشارى » ، وهو المجلس الذى ينظر فى الشئون الدينية فى الجزائر .

ومن ذلك القرار الذى أصدره سنة ١٩٣٨ الوزير الفرنسى شوطان، باعتبار اللغة العربية « لغة أجنبية ، بالنسبة لجميع سكان الجزائر » ، واعتبار تعليمها «محاولة عدائية لصبغ الجزائر بالصبغة العربية». وبذلك أصبحت هذه المدارس التى أنشأها العلماء المسلمون «هدفاً لحملات البوليس التفتيشية باستمرار،وتعرضت لكثير من الحملات الاستفزازية ، وفرضت عليها غرامات فادحة . وذهبت الإدارة الفرنسية إلى أبعد من ذلك ، فحرمت العمال الذين يتردد أبناؤهم على هذه المدارس من الإعانات الاجتماعية التى كانوا يتقاضونها »، كما يقول صاحبا كتاب الجزائر الثائرة .

ومن ذلك تطبيق وجوب الترخيص لكل من يفتتح فى الجزائر مدرسة ، تطبيقاً متعسفاً ، على النحو الذى نرى صورة منه فيما كتبه الأستاذ محمد البشير الإبراهيمى عنه ، فى جريدة البصائر ، مما نرجو أن نعرض له فى الحديث عن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، فى المرحلة التالية .

هذه بعض ردود الفعل التى صدرت عن السلطات الفرنسية مباشرة للحد من نشاط الجمعية وتقييد خطاها . وهنالك ردود فعل أخرى أعانت عليها أو

شجعتها ، أو وجهتها ودبرتها ، صدرت عن رجال الدين الرسميين ، وجماعات من الطرقيين .

وهذه الطوائف من رجال الدين هم — كما رأينا — خصوم الجمعية الأول، وخاصة مشايخ الطرق ، وهم الهدف الأول الذى وجه إليه ابن باديس هجومه ، منذ عاد من الحجاز ، وجلس مجلس التذكير ، وجعل يدعو ، خطيباً وكاتباً ، إلى تبرئة الدين من الدجل الذى يحرص عليه هؤلاء المشايخ ، ومنه يستمدون نفوذهم ومكانتهم أمام العامة . ومنذ ذلك الوقت وهم يحاربونه بكل وسيلة ، ويشوهون صورته عند أتباعهم ، ولا يفتأون يؤلبونهم عليه . حتى إذا أنشئت الجمعيه ، وعلى رأسها ابن باديس والإبراهيمى والعقبي والمدنى وسائر خصومهم فقد اشتدت ضغينتهم ، واضطرمت نار حقدهم . فإذا وجد فيهم الاستعمار أداة له يسخرها فيما يرجو من إحباط دعوة الجمعية ، فقد اشتدت ضراوة الخصومة .

وكم كنا نود — قياماً بواجب العلم — لو استطعنا أن نتتبع هذه الخصومة فى مراحلها المختلفة ، ونتبينها فى جميع وجوهها وأطرافها ، ونراجعها فى مصادرها الأولى . ولكنا لا نجد بين أيدينا من هذه المصادر إلا بعض ما يمثل جانباً واحداً ، وهو جانب الجمعية . وذلك هو أجزاء مجلة الشهاب التى أتيحت لنا .

وهذه الأجزاء تحمل إلينا شيئاً من أصداء هذه الخصومة ، إلى جانب ما يذكره بعض الجزائريين من أتباع الجمعية عما كان يتعرض له الشيخ ابن باديس من تشهير هؤلاء المشايخ به ، وتشويه صورته ، حتى كانوا يطلقون عليه اسم « إبليس » بدلا من « باديس » ، وعما كان يلقاه من العامة الذين يسيطر عليهم

هؤلاء المشايخ من التصدى له عقب إلقاء خطبه ومواعظه ، رمياً بالحجارة ، وقذفا بالطماطم[١] .

أما هذه الأصداء التى تحملها إلينا أجزاء الشهاب التى بين أيدينا ، فإنها تمثل — على نحو ما — بعض وجوه الخصومة ، كالخلاف حول التوسل بالأولياء والاستغاثة بالأضرحة . وذلك بما كان يكتبه فيها بعض رجال الجمعية رداً على القائلين بجواز التوسل والداعين إليه . ومن هؤلاء الكتاب المولود ابن الصديق الحافظى الذى سبقت الإشارة إليه ، فى الكلام عن الزوايا والدعوة إلى إصلاحها . فقد كان من الذين تصدوا لمسألة التوسل ، بالمناقشة والرد ، وكانت من المسائل التى ثار الجدل حولها ، وهو بعد فى مصر ، قبل أن يعود إلى الجزائر .

على أنا لا نلبث أن نرى انشقاقا فى صفوف الجمعية ، وخروج بعض أعضائها عليها ، ومناهضتهم لها . وأكبر الظن أن هذه الخصومة بينها وبين المتصوفة من أسباب هذا الانشقاق . فقد كبر — فيما يبدو — على بعض الفقهاء الذين انضموا إلى الجمعية بادى بدء ، والذين أشار إليهم الشيخ البشير الإبراهيمى فى حديثه عن تكوينها ، والذين هم بطبيعتهم أقرب إلى المحافظة والتقليد ، أن تهاجم بعض العقائد الموروثة التى يمثلها هؤلاء المتصوفة ، فلم يطيقوا البقاء فى الجمعية ، واستجابوا لبعض النوازع والملابسات التى كانت تدعو إلى الخروج عليها :

فنرى من هؤلاء المولود الحافظى الذى كان — منذ عاد من مصر — من دعاة الإصلاح الدينى والتعليمى ، العاملين له والمشاركين فيه . والذى

---

(١) انظر النشرة التى أصدرتها جمعية الطلبة الجزائريين فى تونس ، بمناسبة الاحتفال بالذكرى الخامسة عشرة لابن باديس .

استبشر به رجال الجمعية ، فرشحوه لمجلس إدارتها ، فكان من أعضائه . وقد جعل يدافع عن مبادىء الجمعية ، ويرد على خصومها ، وإن تعرض فى ذلك لشيخه « العلامة المحقق الفهامة الشيخ يوسف الدجوى » ، حامل لواء الدفاع عن جواز التوسل فى مصر. ولكنا لا نلبث أن نرى هذا الشيخ يمضى مع التيار المنشق ، ويتخذ مكانه على رأس الخارجين الذين كونوا جمعية مناهضة ، سموها « جمعية علماء السنة » واتخذوا لها صحفا ثلاثة ، هى : الإخلاص ، والبلاغ ، والمعيار ، يهاجمون منها جمعية العلماء المسلمين .

وليس بين أيدينا ما يدلنا على ملابسات هذه الحركة « الانشقاقية » ، إلا ما جاء فى « الشهاب » رداً على الحافظى . وها هو ذا بعض ما كتبه الأستاذ المبارك الميلى فى مقال له بعنوان : « الصوفية ومراتب العبادة . رد هجوم على جمعية العلماء المسلمين » . وقد نشر فى عدد فبراير سنة ١٩٣٣ ، لعل فيه ما يلقى الضوء على هذه الحركة ، ويصور لنا شيئا من وجوه هـذه الخصومة التى كانت تواجهها الجمعية . قال :

«... وإن الحافظى ما أراد من تلك البيانات إلا التظاهر باحترام الصوفية، والتشنيع على باديس فى تخطئته لهم ، ورمى جمعية العلماء المسلمين التى يرأسها باديس بأنها تؤذى الصوفية ، وفائدته التى يرجوها من هذه النزعات هى إرضاء المنشقين عن هذه الجمعية الذين أسسوا جمعية أخرى قدموه لرياستها ، وليس لهؤلاء المنشقين الشاقين غاية أكثر من محاربة الجمعية الأولى ، فأقام لهم رئيسهم الحافظى بهذا الرد ، على هذا النحو ، شاهداً من شواهد إخلاصه لهم ، ثم أعقبه بشواهد كثيرة نشرها بصحيفة سماها « الإخلاص » ، وسيبشر بها من أمثال تلك الشواهد ما يجعله لدى مرءوسيه هو عين « الإخلاص » .

هذا الحافظى الذى يريد اليوم وقف حياته على محاربة جمعيـــة العلماء

المسلمين ، قد كان عضوا فى مجلس إدارتها ، وكانت الدعوة توجه إليه فى كل اجتماع إدارى ، فلا يحضر ، ولا حضر يوم الاجتماع العمومى فى نهاية السنة الأولى للجمعية . فلما انشق من انشق من الجمعية ، وقف فى صفهم وأصبح إمامهم ، وكلما عقدوا اجتماعا وجدوه أمامهم ... وقد اتخذ كثير من ذوى الأغراض الشخصية التغنى بمحاسن الصوفية إكسيرا للقوم ، وسلاحا على آخرين: إتخذوه إكسيراً للعامة ، يقلبونها به إلى قطعة ذهبية ، ينفقون منها متى شاءوا ، واتخذوه سلاحا على العلماء الناصحين ، كلما خافوا على خرافة الإكسير من الافتضاح .

ولتنظيم الدعوة والإرشاد وإحياء الكتاب والسنة تأسست جمعية العلماء للسلمين الجزائريين ، التى يرأسها الآن الأستاذ باديس ، فتشاءم منها كل من يرى حياته فى موت الشعب ، وكل من رجاؤه فى نقود الأوراق ، أقوى من رجائه فى الخالق الرزاق . وأداروا الرأى بينهم ، فقرروا إما قلب الجمعية إلى ما يوافق أهواءهم ، وإما الانسلاخ عنها ومحاربتها بجمعية أخرى . فلما خابوا فى محاولة قلبها ، أسسوا جمعية أخرى باسم « جمعية علماء السنة » التى يرأسها الحافظى ، وزحفوا لحرب الجمعية الأولى بصحفهم : البلاغ والإخلاص والمعيار ، وجعلوا شعارهم القرآن والحديث . ولكن من وقف على صحفهم علم أنهم ما أرادوا إحياءهما ، وإنما أرادوا ستر فرارهم من حكمهما .

...وقد بحثت جمعية المعارضة عن وسط تعيش فيه فتظاهرت بحماية التصوف والصوفية ؛ لأن العامة ومن قرب منهم إدراكا يعتقدون أن الصوفية مطلقا هم صفوة الخلق ، وهم وحدهم العباد والزهاد ... ولاعتقاد الحافظى بهذه المكانة لدى العامة ، تظاهر بتعظيمهم والذب عنهم . فربط بحثه مع باديس فى « كمال العبادة » بالصوفية ، ليثير عليه — فى ظنه — العامة . وقد سبق له منذ سنوات

محاولة أخرى مع الشيخ الطيب العقبي أشد وأقوى وأصرح من هذه ، فلم يتعظ بخيبته فيها » .

واستمرت الخصومة بين الفريقين ، واحتدمت الحرب التي شنها الخارجون على الجمعية ، واستخدموا فيها سلاح التحريض والإثارة ، واستغلال عواطف العامة نحو المتصوفة ، وإيمانهم الساذج بهم ، كما يمكن أن نلمحه فيما قدمت به مجلة الشهاب ، في جزء يولية سنة ١٩٣٣ ، لمقال كتبه « محمد الهادي الزاهري» بعنوان : « الحافظي كما هو بين القواعد » . ومن هذه التقدمة قولها :

« لقد عرف الناس طوية الشيخ الحافظي من يوم قال في « إخلاصه » عن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين : « خذوهم فغلوهم » ، محرشاً عليهم ، وزين له الشيطان هذه الخطة ، فأخذ لا يكتب مقالا ، إلا ويحشوه بالدس والنميمة والوشاية والتحريش ، حتى افتضح تمام الافتضاح في العدد ٣٣ من إخلاصه ، لما صرح الصراحة كلها بالوشاية والتحريش ، بالتأويل والتحريف . . . . » .

وإذا كنا لا نملك الآن الإلمام بتفصيلات هذه الصورة من صور التحريش والإثارة والتحريض، وأسلوب استخدام هذا السلاح في حرب جمعية العلماء المسلمين ، فبين أيدينا صورة أخرى من صور هذه الحرب ، استخدم فيها سلاح آخر ، هو اتهام الجمعية بأنها صنيعة الاستعمار ، وأن أعضاءها « عبيد الاستعمار الخائنون المضللون ، الذين ما كفى الفرنسيس ما قد أنزلوه بنا من الويلات والمصائب، حتى جاءوا بهؤلاء المسلمين يهدمون ديننا الحنيف ، وإلقاء الشقاق بين أبناء الأمة الجزائرية ، بعد أن كانوا متآخين متحدين متضامنين . . . . » . كما جاء في مقالة بإمضاء قدور بن محمد الخضر ، أرسل بها من الجزائر ، إلى « حضرة المجاهد الكبير ، والصحافي الخطير ، السيد

جورجى الحداد » ، فنشرها فى مجلة له اسمها « القلم الحديدى » ، تصدر فى سان باولو بالبرازيل ، وزعم كاتبها فى تفسير هذه النجعة البعيدة التى انتجعها بها « انهم لا ينشر لهم شىء بالجزائر » .

وقد نقلتها مجلة الشهاب فى جزء أبريل سنة ١٩٣٤ ، وقدمت لها بهذه المقدمة التى نرى فيها إجمالا لردود الفعل المختلفة التى أحدثها قيام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فى الأوساط الجزائرية المختلفة ، دينية ومدنية . وهى، وإن كانت تمثل وجهة نظر واحدة ، تعتبر ، فى هذه الدراسة ، وثيقة كبيرة الخطر :

« إن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أسست لخدمة المجتمع الجزائرى ، من الناحيتين العقلية والقلبية . فهى تريد خدمة المجتمع بالعلوم والمعارف المنورة للعقول ، المزيلة لظلمات الجهل ، وعناكب الخرافات ، وتريد خدمته بالمواعظ والإرشادات ، المطهرة للقلوب ، المقوية للأخلاق ، المنفرة من الرذائل وسائر المفاسد . تريد إصلاح المجتمع من هاتين الناحيتين ، ببث التعاليم الإسلامية الصحيحة . وتلقين الآداب المحمدية العالية . وبالجملة تريد استثمار ما فى كتاب ربنا وحديث نبينا من ثروة علمية وأخلاقية .

ولكن غايتها تلك لم ترق لكثير من رجال الطرق الصوفية ، فقاموا فى وجه رجالها ، ورموهم لدى الحكومة بأنهم وهابيون ، ولا باعث لهم على المعارضة غير المحافظة على غفلة الشعب وانحطاطه ، حتى لا تفوت منافعهم الشخصية .

ولم ترق تلك الغاية لكثير من نواب الأمة السياسيين ، فاستعدوا علينا الحكومة ، ورمونا لديها بأننا دستوريون ، وغرضهم بقاء الشعب يباع ويشترى ، لأنهم ما جلسوا على كراسى النيابة إلا باشتراء الأصوات ، وما

ارتفعوا عليها إلا بانحطاط الشعب ، وما يرتفعون عليها إلا لانحطاطه .

ولم ترق هـذه الغاية لـكثير من الفانى والأئمة ورجال المساجد الرسمية ، فسعوا بنا إلى الحـكومة ،ورمونا لديها بأننا مشوشون ومحدثو شقاق . ولا باعث لهم إلا الخوف من إقبال الأمة على من ينصحها ، وترك من يغشها ويخدعها . فهى منافسة خسيسة لانفيسه .

ولم ترق تلك الغاية لبعض المتفرنجين ، فسبونا بأننا نعمل باسم الجامعة العربية ، والرابطة الشرقية ، ورمونا لدى الحـكومة بأننا نعمل ضد الثقافة الفرنسية. ولا باعث لهم إلا التقرب من الحـكومة، طمعا فى الوظائف والأوسمة.

جمعت بين هذه الطوائف المتفرقة المصلحة المشتركة ، ونشطوا للعمل ضد الجمعية بطرق غير شريفة ، فمن وشاية سرية وجهرية ، إلى تشويه فى الصحف العربية والفرنسية ، إلى تشكيك العامة فى حسن مقاصد الجمعية . فلقيت الجمعية منهم عراقيل صارت حديث المجالس ومضرب الأمثال . واشتد الضغط على رجال الجمعية بصفة غير قانونية ، فمن إغلاق المساجد الرسمية والشبيهة بها فى وجوههم، إلى تعطيل صحفهم تعطيلا متواليا من غير سبب إلا إقلاق راحتهم وراحة من يتصل بهم . ومازالت القوة فى اشتدادها . والله المسؤل فى انجلائها .

كانت من تلك الطوائف على الجمعية حروب متوالية،فكان من رجال الجمعية صبر ومصابرة ، وتعريف الشعب بغايتهم ، وللحكومة بمطالبهم ومظالمهم .وكان من الشعب شعور بصدقهم وإخلاصهم ، وإجماع على ولائهم . وكان من كثير من المتفرنجين ، وأحرار الفرنسيين ، عطف على قضيتهم ، واستياء من توالى الضغط عليهم .

لقد كان فى شعور الشعب بصدق برجال الجمعية ،وإجماعه على ولائها ، ما أيأس تلك الطوائف من موالاة هجومها علينا داخل الوطن الجزائرى ، فأحدثوا فى الخارج واجهة ضدنا . ولا يبعد أن يكون نقل الحرب إلى هذه الواجهة بمؤامرة مع رجال الحـكومة ».

١٣

هذه طائفة من الصعوبات التى واجهتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، منذ قيامها ؛ وهذه بعض ميادين الحرب الظاهرة والخفية التى كان عليها أن تخوضها ، والتى كان الكثير منها يدفع بها إلى لجج السياسة التى حرصت من أول يوم أن تتجنبها .

ولا ريب عندنا فى أن الجمعية قد نجحت إلى حد غير قريب فى إيقاظ الشعور بالشخصية الجزائرية ، وفى إحياء مقوماتها ، بالرغم من كل ذلك الذى اعترض سبيلها . وقد اصطدمت فى هذا بالقوى الاستعمارية المختلفة فى الجزائر ، وكان طبيعياً أن يسبغ عليها هذا الاصطدام لوناً سياسياً .

حتى إذا كانت الدعوة إلى « مؤتمر إسلامى جزائرى عام ، يضم قادة الرأى فى القطر الجزائرى ، لتقرير خطة جزائرية موحدة ، تجمع فيها الأمة على رأى[1] » — وقد كانت مثل هذه الدعوة أثراً من آثار اليقظة القومية التى أسهمت الجمعية فى وجودها إسهاماً قوياً — فقد أشعرتها تبعتها نحو الشعب الجزائرى ، بوجوب الانضمام إليه والمشاركة فيه ، بالرغم من طابعه السياسى ، وحرص الجمعية على تجنب السياسة ، وإن زعمت أنها لا تشترك فيه بصفتها الرسمية ، وأن ما يعنيها منه هو ما يخص القضايا الإسلامية ، والتعليم العربى . بل يذهب بعض الكتاب إلى أن الشيخ عبد الحميد بن باديس كان من أوائل الدعاة إلى هذا المؤتمر ، وأنه هو « الذى كتب عنه ، وكاتب من أجله الهيئات والشخصيات ووضع له الخطوط العريضة[1] » .

---

(١) هذه هى الجزائر ، ص ٧٠ .

(٢) محمد العيد آل خليفة ، لأبى القاسم سعد الله ، ص ٢٠٠ .

ومهما يكن من أمر ، فقد شاركت الجمعية فى هـذا المؤتمر الذى انعقد فى مدينة الجزائر ، فى ٧ يونية سنة ١٩٣٧، سواء كانت هذه المشاركة بصفتها الرسمية أم بصفة أعضائها الشخصية . وسافر ممثلوها فى الوفد الذى بعثه المؤتمر إلى فرنسا ومنهم ابن باديس والبشير الإبراهيمى والطيب العقبى والأمين العمودى .

وقد كان هذا المؤتمر يمثل اتجاهات متباعدة ، بين الاندماج الذى كان يدعو إليه ابن جلول رئيس المؤتمر ، واستقلال الشخصية الجزائرية الذى كان يقول به ابن باديس وأصحابه ، وينادون به فى كل مناسبة .

ولا ريب عندنا فى أن مشاركة الجمعية فى هـذا المؤتمر كان لها أثرها فى مقاومة تيار الاندماج الذى كان يمثله فيه ابن جلول وأصحابه ، فلم يلبث أن ضعف وانكمش إزاء التيار الغالب. «ثم سرعان ما تكون فى وسط المؤتمر الأول[1] انشقاق أدى إلى إخراج ابن جلول من رياسة المؤتمر ، لأن أفكاره وتصريحاته وتوجيهاته لم ترق الهيئة التنفيذية[2]» .

على أن هذا المؤتمر ، بما كان يمثل من يقظة، وما كان يعبر عنه من طموح، كان موضع نقمة الدوائر الاستعمارية فى الجزائر ، فكانت تعمل على إحباطه بأية صورة . وكان مما اتجهت إليه فى ذلك استخدام بعض رجال الدين ، من خصوم جمعية العلماء المسلمين ، وعلى رأسهم مفتى الجزائر بن كحول ، لمارضته والتنديد به وتشويه صورته ، واتخاذ تيار الاندماج الذى كان يمثله رئيسه ذريعة إلى ذلك .

وكان ذلك — فى الوقت نفسه — صورة من صور محاربة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين .

---

(١) كان هناك مؤتمر ثان قوامه رجال الطرق عقد تحت رعاية مدير الشؤون الأهلية الفرنسى ، ضراراً أو تفريقاً .

(٢) الحركات الاستقلالية فى المغرب العربى : ص ٢٥ .

ثم كان ما أصابته الجمعية فى هذا المؤتمر من نجاح ، مما دفع القوى الاستعمارية فى الجزائر إلى مواصلة الكيد لها ، ومحاولة تفريق صفوفها ، وبث الفتنة فيها ، وانتقاصها من أطرافها .

وأكبر الظن أن اتهام أحد أساطينها ، وهو الطيب العقبى ، بقتل الشيخ ابن كحول الذى اغتيل عقب عودة وفد المؤتمر من فرنسا ، إنما كان من تدبير السلطات الاستعمارية فى الجزائر ، كما كان من تدبيرها أن يظل هذا الاتهام معلقاً ، ليكون أقوى أثراً فى انهيار أعصابه ، وفى تقويض أركان الجمعية ، فيما تقدر . يقول الأستاذ علال الفاسى عقب حكايته لهذا الاتهام : « فكان لذلك أثره فى نفسه ، وأخذ يتقرب للسلطات الفرنسية . وفى سنة ١٩٣٨ قدم استعفاءه للجمعية ، لأنها رفضت تجديد ولائها لفرنسا[1] » .

وعبارة الأستاذ علال الفاسى عن سبب استقالة الأستاذ الطيب العقبى من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تثير التساؤل عن علاقة هذه الجمعية بفرنسا . أكان عليها أن تقدم ولاءها كل عام إليها ، ثم رفضت تقديمه سنة ١٩٣٨ ، كما قد توهم العبارة ؟ أم أن نذر الحرب التى جعلت تواجه فرنسا فى ذلك العام جعلتها تحرص على أخذ الثقة لنفسها . والتماس الولاء لدى الجهات التى لا تطمئن إلى ولائها ، فكان من ذلك أن اتجهت إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، لتطمئن على موقفها منها ؟ .

هذا هو ما نميل إلى القول به فى تفسير تلك الكلمة من كلام الأستاذ علال الفاسى. ذلك أن نذر الحرب ما كادت تظهر فى آفاق الدول التى كانت قريبة من التهديد الألمانى ، حتى بادرت إلى تعزيز موقفها العسكرى والسياسى ، وسد كل ثغرة يمكن أن ينفذ العدو منها ، وتقوية كل نقطة ضعف يمكن أن يتجه إليها ويستفيد بها . فكان من الطبيعى أن تراجع فرنسا مركزها فى

(١) المغرب العربى منذ الحرب العالمية الأولى ، ٩١ — ٩٢ .

الجزائر ، وتتفقد مواقعها فيها ، فإذا هى من جمعية العلماء المسلمين إزاء هيئة استطاعت أن تفرض نفوذها على جزء غـــير قليل من الشعب الجزائرى ، كما استطاعت أن توقظ فيه الشعور بشخصيته ، إزاء الاستعمار الفرنسى . وإن مسلـكها فى ذلك ، وموقفها فى المؤتمر الإسلامى ، ومعارضتها سياسة الإدماج ، مما يجعلها — على الأقل — موضع ريبة فى نظر المسئولين الفرنسيين ، ونقطة ضعف فى استحكاماتهم . فـكان من ذلك أن طلبوا إليها أن تعطى عهداً بولائها ، فرفضت .

وقد ذكر الأستاذ عبد الله شريط، فى الفصل الذى كتبه عن ابن باديس، بمناسبة الذكرى الخامسة عشرة لوفاته ، وتضمنته النشرة التى أصدرتها جمعية الطلبة الجزائريين فى تونس ، شيئاً مما دار بين الشيخ وحاكم قسنطينة فى ذلك الوقت . قال :

« وقبيل الحرب دعى الشيخ عبد الحميد من قبل حاكم قسنطينة ، فقال له : إن العالم ـ كما ترى ـ مقبل على الحرب ، فـكيف ترى مصيرها ، ومصير الجزائر معها فى المعركة ؟

فأجابه الشيخ بهذه الـكلمات: إن الجزائر ثلاث طبقات، طبقة الأكثرية، وقد قتلتم إحساسها بالحياة ، فلا تفرق بين فرنسا وابن باديس ؛ وطبقة الأقلية الواعية ، وقد ملأتم أفواهها بعظم الوظيف ، تلوكه بين أشداقها وهى تحسبه غذاء ، وطبقة المعزولين ، يعيشون للمستقبل ، ولا خطر منهم على دولتـكم اليوم . وانصرف » .

والمعزولون الذين يعنيهم ابن باديس هم أعضاء جمعيـة العلماء المسلمين الجزائريين ، الذين فرضت عليهم السلطات الاستعمارية من القيود والحدود ما أريد به عزلهم ووقف نشاطهم . فاقتصر نشاط ابن باديس على ما كان يلقى من

دروس وعظات فى الجامع الأخضر بقسنطينه . وتوقفت صحافة الجمعيـة عن الصدور بعد إعلان الحرب .

وكان توقفها وجهاً من وجوه السياسة التى اتخذت إذ ذاك ، إذ « اجتمع أعضاء المجلس الإدارى للجمعية ، ليقرروا ما يلزم لمستقبل الجمعية احتياطاً ، لأنهم خشوا أن تمنعهم التدبيرات العسكرية من الاجتماع واللقاء فى أثناء الحرب، فيكون كل عضو محبوساً فى بلاده ، وربما كلف كل عضو بتصريح أو بإبداء رأى لا يتفق مع مبادىء الجمعية ، فاتفقوا على تقرير السكوت ، سداً للباب ، بمعنى أن كل من سئل وحده أو كلف بشىء مما يرجع إلى الجمعية ، سكت ولم يجب » . فكان من ذلك أن قررت الجمعية تعطيل صحافتها بنفسها ، «لما تجهمت الأيام ، وتنكرت الأحداث ، واستبهمت المسالك ، ولوح لها أن تجرى على ما يراد بها ، لا على ما تريد » ، كما يقول الأستاذ البشير الإبراهيمى عن أحداث هذه الفترة ، وما قدر لجريدة البصائر فيها[1] .

وهكذا تضاءل نشاط الجمعية وتقلص ، حتى كاد أن يختفى تماماً ، وخاصة بعد اعتقال السلطات الفرنسية وكيل الجمعية ونائب رئيسها ، الأستاذ محمد البشير الإبراهيمى ، ونفيه إلى الصحراء الوهرانية ، فى أوائل سنة ١٩٤٠ ، ثم وفاة رئيس الجمعية عبد الحميد بن باديس ، بعد ذلك بقليل ، فى السادس عشر من شهر أبريل ، من العام نفسه ، ومعاناة البلاد لويلات الحرب .

وبذلك انتهت هذه المرحلة من حياة جمعية العلماء للسلمين الجزائريين .

حتى إذا انتهت الحرب ، وأطلق سراح البشير الإبراهيمى ، وقد أسندت إليه رياسة الجمعية ، ابتدأت مرحلة جديدة ، نرجو أن نعرض لها فيما نستأنف من هذه الدراسة ، إن شاء الله .

(١) استهلال العدد الأول من جريدة البصائر ، سنة ١٩٤٧ ، ونشر فى عيون البصائر ، ص ٧ — ١٢ .

الفهرس

٥

٦

٧

المطبعة الفنية الحديثة
٢٠ شارع الأصبغ بالزيتون ت ٨٦٤٨٧١